

اللغة العربية عبر القرون

الدكتور
محمود فهمي حجازي

١٩٧٨





اللغة العربية عبر القرون

الدكتور
محمود فهمي حجازي

١٩٧٨



الفهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

هذه طبعة جديدة من كتاب « اللغة العربية عبر القرون » ، وكانت الطبعة الأولى منه قد ظهرت بالقاهرة سنة ١٩٦٨ ضمن سلسلة « المكتبة الثقافية » التى تصدرها وزارة الثقافة . لقد نفدت الطبعة الأولى بعد أيام من ظهورها ، وقوبلت من جمهور القراء والمثقفين ووسائل الأعلام باهتمام وتقدير كبيرين ، ولذا أجد لزاما على أن أقدم لكل قارئ منهم الشكر والعرفان .

تختلف الطبعة الثانية فى إضافة فصلين جديدين ، يتناولان : القضية اللغوية والحضارة الحديثة ، ثم : المصطلحات وألفاظ الحضارة الحديثة ، وهناك تعديلات فى الفصول الأخرى تتعلق بالعبارة دون المحتوى .

إن هذا الكتاب صفحات محدودة فى موضوع كبير ، فتاريخ العربية طويل ، والمقارنات السامية تجعل هذا التاريخ خمسة وأربعين قرنا ، والعربية لغت حضارة عالمية على مدى عدة قرون ، ثم كان عليها مع النهضة الحديثة أن تعبر عن الجديد فى العلم والحضارة . وحسب هذه الصفحات أن تكتفى بالملامح الأساسية فى هذا التاريخ وأن تقدم من الأمثلة أوضحها ومن الجزئيات أكثرها تعبيراً . أنها محاولة أرجو أن تكون محققة لما ينشده القارئ من الوضوح والصدق والموضوعية ؟

محمود فهمى حجازى

الفصل الأول

اولا : اللغة والتاريخ اللغوى

اللغة نظام من الرموز الصوتية ، وقد عرفها اللغوى العربى ابن جنى ت ٣٩٢ ﻫ بقوله : حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[1] . وهذا التعريف دقيق ويتفق فى جوهره مع عناصر تعريف اللغة عند الباحثين المعاصرين [2] ، فهو يؤكد — من جانب — الطبيعة الصوتية للرموز اللغوية ويبين أيضا أن وظيفتها الاجتماعية هى التعبير ونقل الفكر فى إطار البيئة اللغوية ، ويذكر كذلك أنها تؤدى وظيفتها فى مجتمع فلكل قوم لغتهم .هذا وقد عرف البحث اللغوى الحديث فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين تعريفات مختلفة للغة تناولتها من وجهات نظر

---

(١) الخصائص ١/٣٣

(٢) أنظر مثلا الكتب الأساسية التالية :

— F. de Saussure, Cours de Linguistique génerale, Paris, 1916.

— H. A. Gleasen, An Introduction to descriptive Linguistics, New York, 1955.

— J. Lyons, Introduction to theoretical Linguistics, Cambridge 1968

— R. H. Robins, General Linguistics, London 1971.

وللكتاب الأول ترجمة إنجليزية ، والكتب الأخرى توجد أيضا فى ترجمات فرنسية .

عديدة ، ولكنها تتفق فى إبراز الطبيعة الصوتية للرموز اللغوية وفى إيضاح الوظيفة الاجتماعية للغة .

ومن هنا تنجم الأسس المنهجية للبحث اللغوى بمناهجه المختلفة ، فالدراسة اللغوية تعرف قطاعين متكاملين : الأول دراسة البنية اللغوية فى جوانبها الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية ، والثانى بحث ارتباط هذه البنية بوظيفتها الحيوية فى المجتمع ، ويدخل فى دراسة وظيفة اللغة إيضاح أثر الجوانب الاقتصادية والسياسية والدينية والثقافية على الحياة اللغوية وتطورها ، فدراسة بنية اللغة ووظيفتها فى المجتمع دراسة نابعة من طبيعة اللغة وحياتها .

فاللغة — أولا وقبل كل شىء — نظام من الرموز ، ومعنى هذا أنها تتكون من عدد كبير من الجزئيات التى تنتظم بعلاقات محددة فى سياق أو نظام محدد ، وأقل هذه الرموز الوحدة الصوتية تليها الكلمة ثم تتكون الجملة بالتالى من الكلمات وقد رتبت فى سياق متعارف عليه فى البيئة اللغوية ، وقيمة الرموز ليست قيمة ذاتية طبيعية بل هى مستمدة من الاتفاق العرفى عليه ، فالرمز اللغوى يستمد قيمته من الاتفاق عليه بين الأطراف التى تستخدمه فى تعاملها . فهو يمثل أداة الاتصال بين المتحدث أو الكاتب من جانب وبين المستمع أو القارىء من جانب آخر . واللغة هنا هى هذه الرموز التى تنقل التأثير من المؤثر إلى المتلقى ، وهذا معناه وجود اتفاق بين المؤثر والمتلقى على استخدام هذه الرموز اللغوية بقيمها العرفيه ، أو بعبارة أخرى وجود اتفاق بينهما على ترجمة هذه الرموز الصوتية إلى أشياء يدركها الجهاز العصبى .

فالجهاز العصبى للمتكلم يستجيب لمؤثرات مختلفة خارجية كانت أو داخلية ، فيصدر أوامره إلى الجهاز النطقى وهذا الأمر فى صورة موجات صوتية ذات خصائص خاصة ونسق محدد فيتلقاها الجهاز السمعى للمتلقى ناقلا إياها إلى الجهاز

العصبى له[1] ، وعلم اللغة ينظر إلى هذه العملية باحتاطبيعة هذه الرموز الصوتية التى نقلت الفكرة أو الانفعال من المتحدث إلى المتلقى ، رابطا هذا بالمعنى التى تحمله هذه الرموز . فالدراسة الفيزيائية لخصائص هذه الرموز الصوتية لا بد وأن ترتبط بالمعنى وبكل ما يتعلق به كى تصبح هذه الدراسة من علم اللغة .

والنظام اللغوى لا يمكن أن يكون معلقا فى الهواء أو هدفا فى ذاته ، ولابد أن يستخدم بطريقة أو بأخرى فى مجتمع بعينه كى يكون لغة ، ومن الحقائق المعروفة أنه لا يوجد إنسان يستخدم كل المعجم الذى تعرفه لغته وقصارى أكثر الناس معرفة باللغة أن يستخدم قطاعا منها فى حديثه وتأليفه ، وهو فى ذلك مرتبط بعلاقاته الاجتماعية ومستواه الثقافى وضرورات عمله ، ومن هنا يجب فى دراسة اللغة أن نحدد المستوى الذى يستخدم فيه النظام اللغوى الذى ندرسه ، ففى بعض المجتمعات تستخدم لغة للتعامل اليومى وأخرى للتعليم والثقافة وفى مجتمعات أخرى يستخدم قطاع من اللغة لأمور الحياة اليومية ويعرف التعبير الأدبى قطاعا آخر ، فهذان مستويان من مستويات استخدام اللغة ، وفى المجتمعات الأوروبية المثقفة يدور حديث المثقفين بلغة هى الفصحى فى أصواتها وصرفها ومعجمها وإن كانت أبسط منها فى نحوها ، ويحاول كل مثقف الارتفاع عن اللون المحلى فى لهجته ليتوسل فى حديثه حديث المثقفين وكتاباتهم ، وتستخدمها الإدارة وأجهزة الإعلام والطبقات المترفة. هذا وقد حاول عدد من اللغويين تحديد مستويات الاستخدام اللغوى فى المجتمع الانسانى ووضع مجموعة معايير عامة يمكن بتطبيقها التعرف على طبيعة العلاقات

(١) انظر تفصيل هذا فى :

L . Bloom Field, Language

وهذا الكتاب يعد من أكثر الكتب الحديثة تأثيراً فى علم اللغة ، ويمثل — أيضا فى نظرته للغة المدرسة السلوكية التى سادت علم النفس فى أمريكا فى الربع الثانى من القرن العشرين .

اللغوية داخل المجتمع الوحد [1]. وهى علاقات تختلف فى تفصيلاتها من مجتمع لآخر، فكل مجتمع يعرف علاقاته ومستوياته اللغوية، ومعروف أنه لا يجوز أن نفرض تقسيما مسبقا على مجتمع ما، وقصارى عمل اللغوى أن يشحذ ذهنه بدراسة مجتمعات لغوية كثيرة فى ملاحظة اللغة التى يدرسها وأن يحدد على نحو موضوعى معالم اللغة كنظام من الرموز الصوتية مع ربط هذا النظام بالمستوى الاجتماعى والثقافى الذى يستخدم فيـــه .

فى بعض المجتمعات المعاصرة نلاحظ ارتباط لغة بعينها بجنس دون الآخر، ففى النوبة المصرية والسودانية يستطيع أكثر الرجال التعامل بالعربية — على الرغم من أن حديثهم بالعربية يجعلنا نعرف من طريقة نطقهم واستخدامهم لبعض الصيغ أن وراءه أساسا لغويا نوبيا ، فاللغة العربية وسيلة التخاطب بين النوبيين فى تعاملهم مع غير النوبيين وهى أداتهم على المستوى الثقافى ، اما حديثهم اليومى داخل ديارهم فبلغة أخرى هى النوبية التى لا يفهمها من العرب إلا من تعلمها. واللغة النوبية لغة متميزة لها بنيتها الخاصة التى تختلف عن العربية اختلافا بعيد المدى . النساء فى المجتمع النوبى لا يختلطن بالمتحدثين بأبناء العربية ، ولذا لم تنتشر العربية بين نساء النوبة كانتشارها بين الرجال هناك . وفى مناطق مختلفة من المغرب العربى نلاحظ معرفة أكثر الرجال البربر بالعربية ، أما النساء فيتحدثن دائما باللهجات البربرية المختلفة ومعرفتهن بالعربية مقصورة على من تعلم منهن التعامل بها فى أمور الثقافة والادارة . فى النوبة وفى المناطق التى يسكنها البربر فى المغرب وفى القرى القليلة التى ماتزال تتحدث بالآرامية فى الشام والعراق يسود إزدواج لغوى . اللغة الأقدم — ونعنى بذلك اللغة التى سبقت الأخرى فى المنطقة — ظلت لغة الحديث والحياة اليومية، أما اللغة الوافدة وهى العربية فتستخدم فى المجالات الثقافيه والاجتماعية . و الازدواج

(١) أنظر :

C. A. Ferguson,
The Role of Arabic in Ethiopia, in : Sociolinguistics, Penguin Books, 1974.

اللغوى فى الأمثلة السابقة إزدواج بين لغتين مختلفتين تمام الاختلاف [1] ، وهناك إزدواج من نوع آخر عندما تكون لغة الحديث مختلفة عن لغة الكتابة ، كلتاهما تمثل صورة أو قطاعا من لغة واحدة كما هى الحال بالنسبة للعالم العربى اليوم [2] . فالازدواج اللغوى على هذا النحو إزدواج داخل اللغة الواحدة ، ولابد هنا من إدراك البعد الاجتماعى للغة أو اللهجة التى ندرسها وتحديد طبيعة العلاقات اللغوية فى المجتمع .

واللغة — كما نقول كثيراً — ظاهرة اجتماعية يدرجها الباحثون بين الظواهر الاجتماعية غير المادية ، فاللغة والدين والعادات كلها فى هذا القسم من الظواهر. وهناك فرق بين بحث الظواهر المادية وبحث غير المادية ، فاذا اتجه باحث انثروبولوجى اليوم إلى الهند لدارسة مجتمع من مجتمعاته الصغيرة فهو مطالب فى دراسة الظواهر المادية بوصفها ، وهو قادر على ذلك بمجرد التعرف عليها والتدقيق فى معالمها ، ويدخل

---

(١) يطلق على الازدواج بين لغتين عند جماعة واحدة مصطلح :

Bilingualism

ومن أهم البحوث فى أثر ذلك فى اللغات :

U. Weinreich, Languages in Contact, Paris 1974.

(٢) من أهم البحوث فى هذا الموضوع مع مقارنة طبيعة المشكلة فى العربية والألمانية فى سويسرا واليونانية :

C. A. Ferguson, Diglossia, Word, Vol. 15, 1959, PP. 325 — 40 .

وقد طبع هذا البحث عدة مرات فى عدة كتب تناولت اللغة والمجتمع ، منها :

Language and Social Conrtext, ed Pier Paolo Giglioni, Penguin modern Sociology Readings 1972, PP. 232 — 251

فى هذه الظواهر المادية : اشكال المساكن والأزياء الشعبية وأدوات العمل وما شاكل هذا وذاك ، ولكن دارس الظواهر غير المادية يواجه بمجموع ظواهر بحثه كنظام متكامل يؤدى وظيفته ، فعليه أن يلوذ بالصبر ويستعين بالجلد وهو يلاحظ آلاف الجزئيات المكونة للنظام اللغوى أو العقيدى أو الاخلاقى . وعلى الباحث بعد تسجيل هذه العناصر المكونة أن يصنفها تصنيفا علمياً ويبلورها فى شكل نظام متكامل يربط كل هذه الجزئيات وهذا منهج الباحث اللغوى فهو يلاحظ ثم يسجل ثم يصنف ثم يبلور محاولا بكل هذا اكتشاف بنية اللغة التى يدرسها فى إطارها الاجتماعى .

وشأن اللغوى فى هذا شأن عالم الاجتماع الذى يقرر طبيعة العلاقات فى المجتمع كما هى ، لا كما ينبغى أن تكون ، فعلم اللغة علم أساسى يهتم بكشف الأبعاد الحقيقية للظاهرة اللغوية ، وليس هدفه — كما كانت الحال فى الدراسة اللغوية قبل العصر الحديث — إصدار أحكام الصواب والخطأ ، بل هدفه الأسمى أن يقرر طبيعة هذه العلاقات فى واقعها الكائن أو الذى كان. ومن هنا يختلف المفهوم الحديث للبحث اللغوى الأساسى عما يسميه البعض باسم « التخطيط اللغوى » أو « السياسة اللغوية » ، فاللهجات تدخل فى مجال علم اللغة لا لجمالها أو لقبحها بل لأنها شىء قائم وواقع محسوس ، فالباحث فى اللهجات القديمة أو الحديثة لا يفعل هذا بهدف الرفع من شأنها أو القضاء على الفصحى فليس هذا مجاله وليست هذه طبيعة عمله . عالم اللغة يدرس اللهجات قديماً لأنها ظواهر لغوية وجدت أو لا تزال موجودة ، وهو فى هذا يقرر واقع الظواهر الصوتية والصرفية والتركيبية والمعجمية فيها(١) . وليس من عمل عالم اللغة أن يقبل ظاهرة أو يرفضها بل عليه أن يصف فى

---

(٢) أنظر : محمود فهمى حجازى : اتجاهات المستشرقين فى دراسة الحياة اللغوية فى العالم العربى الحديث ، مجلة « المجلة » ، القاهرة يونية ١٩٦٦ .

هدوء ويبلور فى عمق ، عليه أن يعمل فى موضوعية عالم الكيمياء الذى يحلل الماء فلا يمدح الأكسوجين ولا يذم الهيدورجين ، فعالم اللغة يحلل اللغة أو اللهجه أو المستوى اللغوى الذى يدرسه دون حب أو اعجاب ، كراهية أو نفور.

ومن هنا فان كل مستويات الاستخدام اللغوى تدخل فى دراسة اللغة ، ويبحث تاريخ اللغة كل مراحل اللغة من أقدم العصور إلى الآن وكل مستويات استخدامها من لهجات وفصحى وما بين هذه وتلك ، والهدف هنا هو التحليل العلمى لاصدار أحكام الاعجاب أوالازدراء ، وقصارى جهد اللغوى أن يبلور عناصر النظام اللغوى فى المراحل المتتابعة للمستويات المختلفة والمتداخلة .

وكثيراً ما يحدث عند غير الباحثين فى اللغة لبس بين اللغة والكتابة ، فاللغة رموز صوتية منطوقة مسموعة ، أما الكتابة فى أفضل صورها فلا تعدو أن تكون محاولة للتعبير عن الواقع الصوتى ، وهذه المحاولة دقيقة فى حالات نادرة ودقتها نسبية، الكتابة محاولة لنقل الظاهرة الصوتية السمعية إلى ظاهرة كتابية مرئية ، أو محاولة نقل اللغة من بعدها الزمنى المنطوق إلى بعد مكانى مرئى . مادة البحث اللغوى إذن هى اللغة فى صورتها الصوتية وليست الكتابة فى أشكالها ولا حروف الطباعة فى إنماطها . فالخط العربى شىء يعبر به عن الواقع الصوتى للعربية والفارسية والاردية وكتبت بها التركية ، وتدوين هذه اللغات — وغيرها — بالخط العربى إنما يعد محاولات لتدوين الواقع الصوتى تتفاوت دقتها من لغة لأخرى . فالخط العربى شىء واللغة العربية شىء آخر ، ولكل خط امكانياته التعبيرية الخاصة به ، فالخط العربى لا يعرف كتابة الحركات القصيرة على نحو ملزم رغم أنها عناصر فى النظام الصوتى، ولا يهمنا هنا أكتب الخط العربى هذه الحركات أم لا ، فهذا أمر خاص به ، ولكننا ندرس الحركات القصيرة لوجودها فى الواقع الصوتى ، نحن نكتب «فى المدرسة» على النحو الذى نراه، والواقع الصوتى هنا نسمعه فى فاء ثم كسرة ثم لام ...،

أى أن الياء المكتوبة هنا لاتعبر كما اعتدنا عن كسرة طويلة والألف هنا ألف وصل لا تنطبق فى السياق ، فلكل خط طبيعته التى تمليها ظروفه الخاصة ، وليست دراسة تطور الخط من أهداف علم اللغة رغم أن الخط يعد أحيانا وسيلتنا الوحيدة لمعرفة اللغة والذى يهم اللغوى من الخط هو مدى تعبيره عن الواقع الصوتى .

ثانيا : التاريخ اللغوى :

التاريخ اللغوى شقان : أولهما التطور فى بنية اللغة ومعجمها والثانى مجالات الانتشار والاستخدام اللغوى . وهذان الشقان نابعان من الطبيعة الرمزية الصوتية للبنية اللغوية ومن الوظيفة الاجتماعية لها .

والجانبان متكاملان يفسر أحدهما الآخر ، ولنقف قليلا عند نطق كلمة «القرآن» وكلمة « القاهرة » فى حديث من ينطق كلمة « قال » وكلمة « قرش » بهمزة ودون قاف فصحى . إن هذا المتحدث لا يمثل هنا نفسه بل يمثل خاصية من خصائص لهجة القاهرة وبعض اللهجات العربية الأخرى . ونحن نعلم أن القاف القديمة تحولت فى ألفاظ لهجة القاهرة إلى همزة وهــــذا قانون صوتى مطرد ، والقوانين الصوتية لا تعرف الشذوذ ولا التهاون فهى مطردة دائما ، فلم يسر قانون تحول القاف إلى همزة فى لهجة القاهرة على القاف فى « القرآن » و « القاهرة »؟ الواقع أن هذا يفسر بمستويات الاستخدام اللغوى ، فالمتحدث بالعامية لم يسمع الكلمتين إلا فى المسجد أو من قراءة المتعلمين ، ولا يسمعها اليوم إلا على المستوى الثقافى ، أى أن الكلمتين قد استخدمتا وبقيتا على المستوى الفصيح ولم تسمعا فى غير هذا المستوى، فقد حلت كلمة «مصر» فى الحديث اليومى محل كلمة القاهرة وحلت كلمة «المصحف» محل كلمة «القرآن» فإذا قلنا أن القانون الصوتى مطرد لا يعرف الشذوذ وأن القاف فى العربية الفصحى يقابلها همزة فى لهجة القاهرة فاننا لا نفسر وجود القاف فى «القرآن» و«القاهرة» فى نطق أبناء القاهرة فى لهجتهم العامية إلا بالنظر إلى مستوى الاستخدام اللغوى، فالواقع

أن الكلمتين إنما استعيرتا من الفصحى إلى اللهجة المحلية فاحتفظتا بالقاف بعد أن كانت لهجة القاهرة قد هجرت القاف إلى الهمزة ، فواجب اللغوى أن يدرس نظام اللغة ومستوى استخدامها وأن يدخل البعد الأخير فى تفسيره التـــاريخى للظواهر اللغوية .

إن بنية اللغة تتغير ، ونطق المتحدث بصوت ما لا يتم مرتين على نفس النحو بنفس المعالم والخصائص التشريحية أو الفيزيائية ، فكيف نطقنا له ملايين المرات! إن مدى الاختلاف قليل عند الفرد الواحد ، ولكن ماذا يحدث لو استمر فرد ذو مكانة مرموقة فى النطق على نحو جديد بصوت من الأصوات أو فى استخدام كلمة ابتكرها هو أو بعثها هو من سبات معجمى عميق أو استخدم أسلوبا جديدا فسمعه الناس وأعجبوا به عن وعى أو دون وعى . النتيجة حدوث تغير لغوى . فالتغير اللغوى أساسه الاستخدام الفردى للغة ، فاذا كان هذا المستخدم ذا مكانة اجتماعية أو وظيفية أو ثقافية مرموقة وقلده المقربون منه أو من أرادوا التقرب منه ثم اتسعت دائرة المقلدين شيئا فشيئا ، أصبح هذا التجديد اللغوى نمطا لغويا سائدا وعرفا ملزما وأصبحت الصورة الناجمة هى اللغة المتعارف عليها وانقرضت الصورة القديمة أو توارت . لقد تطور نطق الراء الفرنسية إلى نطقها الباريسى المعروف الذى يجعلهـا قريبة من الغين العربية عند أحد رجال البلاط الملكى الفرنسى فقلده سائر رجال البلاط ثم الارستقراطية فانتشر هذا النطق فى دوائر أخرى بعامل تقليد الطبقة المتميزة اجتماعيا إلى أن أصبح هذا التجديد نمطا لغويا سائدا . فدراسة نطق الراء الفرنسية القديمة والنطق الجديد المستقر من الناحية التشريحية أو الفيزيائية يبينان مدى الاختلاف أو الاتفاق بين المخرجين أو الخصائص ، هذه الدراسة لا تكتمل إلا بربطها بمستوى استخدامها وبالمجتمع الذى استخدمت فيه .

ومنذ عدة سنوات كان يلاحظ فى جامعات القاهرة اتجاها جديدا بين عدد من الطالبات يذكيه بعض مذيعات التليفزيون العربى فى نطق الطاء والضاد والصاد والظاء، وهذه الاصوات يطلق عليها عند علماء الاصوات الاصوات المطبقة، وقد بدأت ظاهرة الاطباق تختفى عندهن، وقد زادت ظاهرة عدم الاطباق فى نطق الطاء والضاد والصاد زيادة ملحوظة أثارت حفيظة الغيورين على النطق المتوارث للعربية. والواقع أن هذه الظاهرة كان من الممكن أن يزيد مدى استخدامها إذا استمرت وسائل الاعلام فى نطقها على ذلك النحو وهنا يكمن اتجاه نحو تغير لغوى، ولا أعنى هنا بالتغير شيئا طيبا بل أريد مجرد وصفه، وإذا حاولت الدوائر الحاكمة لغويا وأعنى بهم مذيعى الاذاعة والتليفزيون الوقوف مع النطق التقليدى ظل ما حدث ظاهرة غير عامة ووقف انتشارها. فالتغير اللغوى مصدره الفرد ولو أتيح لهذا التغير أن ينتشر ويقبل فى المجتمع لأصبح عرفا لغويا يدخل فى مجال البحث اللغوى، ولو ظل على المستوى الفردى لما كان مما لا يدخل فى علم اللغة.

ويتأثر انتشار الصيغة اللغوية بعوامل كثيرة، ولعل من الملاحظ أن أساتذة الجامعات يدخلون عددا من المصطلحات العلمية إلى اللغة للتعبير عن المعانى الجديدة أو العلوم الوافدة على العربية، فيكتب لجمهرة هذه الاصطلاحات أن تستخدم — بادىء ذى بدء — بين طلابهم ثم فى دوائر أوسع، إلى أن تستقر فى العرف اللغوى وقد تصبح من المشاع اللغوى العام بعد ذلك، فان اختلف واضعوا الاصطلاحات وتعددت منهم اصطلاحاتهم للشيء الواحد حدث ارتباك فى استخدام المصطلحات وربما تعذر التفاهم وتتأثر اللغة فى حياتها وانتشارها بعوامل كثيرة، فالعامل الدينى أبقى العبرية لغة مقروءة أكثر من عشرين قرنا، فكان اليهود يتعلمون قدرا من العبرية لأنها لغة العهد القديم[1]، والتقاء العالم العربى حول الفصحى

---

(1) العهد القديم The old Testament تسمية مسيحية لمجموع التوراة =

عدم نجاح الدعوة إلى الكتابة بالعامية يرجع إلى عوامل منها الالتقاء حول لغة القرآن الكريم، واللغة القبطية فى مصر والسريانية فى مناطق الشام والعراق ارتبطتا بالصلاة الكنسية ، وفوق هذا وذاك فقد مهد العامل الدينى لدخول عدد من الألفاظ العربية المتعلقة بالدين والحضارة إلى لغات العالم الاسلامى فى آسيا وأفريقيا، ففى هذه اللغات نجد الألفاظ الخاصة بالعبادات وبالسلوك اليومى للمسلم مثل (صلاة زكاة حرام حلال عيد حج) مستعارة من العربية . وارتباط الخط العربى بالدين الاسلامى جعل المتحدثين باللغة الحبشية فى هرر وكلهم من المسلمين — يكتبون الحبشية بالخط العربى ويدخلون فيها عددا من الألفاظ العربية وكأنهم قد أرادوا أن يثبتوا ارتباطهم بالعالم العربى الاسلامى وتميزهم عن الأحباش المسيحيين من حولهم .

والعامل السياسى ذو أثر فى نشأة اللغات أو انتشارها ، وقد ظهرت اللغات الرومانية المختلفة من فرنسية وإسبانية وإيطالية ورومانية فى فترة كانت الوحدة السياسية لهذه المناطق قد تمزقت نهائيا وكانت الحركة القومية آخذة فى الظهور . وعندما ننظر إلى العالم العربى فى ظل الحكم العثمانى نجد أن لغة الادارة العليا على ضيق مجالها — كانت اللغة التركية وأدى هذا إلى انتشار نسبى للغة التركية امحى مع زوال السيطرة التركية ، هذا وتقسيم البعض للدول الافريقية بأن هذه تنطق بالفرنسية Francophone وتلك تنطق بالانجليزية يعكس — رغم كل شىء — أثر السيطرة السياسية لفرنسا وانجلترا فى القارة الافريقية . واليوم يتعلم تلاميذ (التركستان ازبكستان سابقا) اللغة الروسية لأنهم يعيشون فى جمهورية تنتمى إلى

= الأنبياء والمكتوبات ، وهى الكتب المقدسة عند اليهود المعروفة عندهم بهذه التسميات أو بالمختصر المكون من حروفها الأولى (ت ن خ) ، وهى عند المسيحيين «العهد القديم» الذى أكمله بعد ذلك «العهد الجديد» أى الانجيل .

الاتحاد السوفيتي فالعامل السياسي يؤثر في انتشار اللغة ولكن هذا الأثر يختلف مداه من إقليم لآخر طبقا لطبيعة العلاقات في المجتمع .

أما العامل الاجتماعي فهو من أهم العوامل وأبعدها أثرا في حياة اللغة ، فانتقال مجموعة بشرية معينة من مكان إلى آخر واختلاط المجموعة الوافدة مع السكان القدامى كفيل بخلق علاقات لغوية جديدة، ومن المعروف ان هجرة القبائل العربية عقب الفتح الاسلامي للشام والعراق ومصر والمغرب كانت أهم حدث في تاريخ العربية فقد انتشرت اللغة العربية بهذا خارج نطاق جزيرة العرب وأصبحت لغة الحديث والأدب والثقافة في الدوله الاسلامية الكبرى . وفوق هذا وذاك ، فالطبقة العليا في المجتمع الواحد ذي الطبقات المتعددة تؤثر تأثيرا حاسما على المستويات اللغوية المستخدمة لدى الطبقات الأخرى ، ومحاكاة الطبقة العليا أمر معروف وملاحظ في كل مظاهر الحياة الاجتماعية ويكفي أن تظهر بعض العادات اللغوية الجديدة أو بعض التجديدات عند أفراد الطبقة العليا ثم يقلد هذا التجديد في طبقات عريضة في المجتمع فيصبح بذلك ظاهرة اجتماعية عامة .

والعامل الحضاري عامل فعال في حياة اللغة وانتشارها ، فتعلم أبناء العربية اليوم للغة الانجليزية يرجع أولا وقبل كل شيء إلى القيمة العلمية للمؤلفات المكتوبة باللغة الانجليزية في مختلف فروع المعرفة، والتقدم العلمي في روسيا في القرن العشرين دعم مكانة اللغة الروسية وجعل منها لغة يقبل غير الروس على تعلمها ، واليوم لا نرى الاوربيين يتعلمون العربية إلا للتخصص فيها أو التعامل مع العرب ، وستصبح العربية محط اهتمام العالم في التعليم العام والجامعي عندما يحقق أبناء العروبة بمنجزاتهم الحضارية والعلمية ما يحمل العالم الخارجي يقبل على الاستفادة مما كتبه أبناء العربية بالعربية . وكل تقدم يحرزه أبناء العربية اليوم تدعيم لمركز اللغة العربية بين اللغات

العالمية ، وقديما دار حديث المفكرين عن أفضل اللغات[1] ، والواقع أن الفيصل فى قيمة اللغة هو تراثها وما تحمله من حضارة وعلم يفيد الحاضر ويبنى المستقبل . فأبناء اللغة هم الذين يرفعون قيمتها أو يقللون من شأنها لا بتفانيهم فى تقريظها بل بعملهم الحضارى وبتأليفهم بها .

اللغة اذن نظام من الرموز الصوتية يؤدى وظيفته فى المجتمع ويتأثر بالعلاقات المختلفة فيه، ودراسة التغير اللغوى هى حصيلة دراسة تطور البنية وتطور العلاقات، ولكن كيف نبدأ الفصل الاقدم فى حياة العربية ؟ وهل نستطيع أن نفرد لآدم ولغته فصلا فى كتاب عن تاريخ اللغة العربية ؟ قد يبدو هذا التساؤل طريفا لدى القارىء الحديث ولكن ألم يتصور البعض عندنا كون العربية لغة آدم ، مفسرين الآية الكريمة (وعلم آدم الأسماء كلها) تفسيرات مختلفة ضيقة[2] . فآدم فى الآية ليس إلا الانسان فى مرحلة ظهوره على الأرض ، وقد أتيح للإنسان أن يسمى الأشياء تسمية لغوية ، فتميز بهذا عن سائر الكائنات ، فالأسماء هنا ليست قسيم الافعال أو الحروف بل تعبير عن القدرة اللغوية بعامة ، وهذا الاستطراد ليس من علم اللغة ، فلغة الانسان الأولى ونشأة اللغة ليسا من علم اللغة لأنهما مما لا يدرك بمناهج البحث العلمى الدقيق ، والبحث اللغوى يبدأ عندما نجد نقشا أو نصا أو لهجة منطوقة ، ولا يستطيع علم اللغة أن يمضى وراء أقدم النقوش فى لغة ما إلا بالمقارنة مع النقوش الاقدم فى اللغات المنتمية إلى نفس الاسرة اللغوية . والعربية إحدى اللغات السامية ولكنها لم تصل إلينا إلا قبيل الاسلام بقرون غير أن الدراسة المقارنة للغات

---

(١) انظر هذه الآراء مثلا ، فى: الخفاجى : سر الفصاحة ٤٨ — ٥٩ السيوطى : المزهر ٣٢١/١ (ط. القاهرة ١٩٦٥) .
(٢) انظر السيوطى : المزهر ٢٨/١ — ٣٤ .

السامية أثبتت أن العربية أقدم من أقدم النقوش العربية بأكثر من ألفى عام ، فالمراحل السابقة على النقوش المدونة بالعربية نستشفها بالمقارنات مع النقوش المغرقة فى القدم التى دونت باللغات السامية الاخرى ، فعلم اللغة المقارن يتناول اللغات المندرجة فى أسرة لغوية واحدة بالمقارنة المنهجية بحثا عن الأصول المشتركة والعلاقات التاريخية بين هذه اللغات .

الفصل الثانى

اللغة العربية فى ضوء اللغات السامية

أولا : علم اللغة المقارن واللغات السامية :

يقسم اللغويون المعاصرون اللغات المختلفة إلى مجموعات أو أسرات ، فهناك أسرة اللغات الهندية الاوربية التى تضم عددا كبيرا من اللغات الهندية أو الايرانية والأوربية ، وأسرة اللغات السامية التى تضم العربية والأكادية والكنعانيةوالحبشية والآرامية [1]. وقد تمكن العلماء من تقسيم اللغات المختلفة إلى أسرات أو فصائل بمقارنة هذه اللغات واكتشاف أوجه التشابه بين عدد منها ، الأمر الذى جعلهم يفترضون وجود أصل مشترك خرجت عنه هذه اللغات على مر التاريخ ، وجدوا ظواهر مشتركة فى اللغات المنتشرة ما بين أوربا وايران والهند واعتبروا هذه اللغات ضمن اطار اسرة لغوية واحدة من أصل واحد مشترك . ووجدوا اللغات العربية والعبرية والفينيقية والأكادية والحبشية تحمل بعض الخصائص اللغوية المشتركة فقالوا أنها لغات انحدرت من لغة واحدة اطلقوا عليها اللغة السامية الأم أو السامية الأولى ، وكل هذه المقارنات هى مجال علم اللغة المقارن .

---

(١) انظر توزيع لغات الأسرة الهندية الأوربية وتوزيع لغات الأسرة الأفرو أسيوية ، ومنها السامية ، محمود حجازى ، فى المدخل إلى علم اللغة (القاهرة ١٩٧٦) .

المقارنات اللغوية وليد القرن التاسع عشر ، ولنشأة علم اللغة المقارن ظروف فكرية جعلته ينشأ متسما بطابعه المنهجى المتميز . فالواقع أن مجرد المعرفة باللغات لايعنى قيام بحث مقارن ، ففى العصور الوسطى الاسلامية كان كثير من النحويين واللغويين العرب يعرفون لغات أجنبية ، بعضهم كان يعرف الفارسية وعرف عدد منهم التركية وكتبت طائفة بالعربية والعبرية أو بالعربية والسريانية ، فسيبويه ، والسيرافى، كانا يعرفان الفارسية(١)وابن العبرى كتب بالعربية والسريانية، وألف فى النحو السريانى على غرار المفصل للزمخشرى ، لقد درس ابن العبرى النحو العربى وعرفه حق المعرفة منهجا ومادة ، وأقام على منواله كتابه المشهور فى النحو السريانى ، والسريانية والعربية لغتان ساميتان تنتميان إلى اسرة واحدة ، وهناك عدد من النحاة اليهود عاشوا فى الأندلس ودرسوا فى اطار الثقافة الاسلامية النحو العربى وألفوا كتبا فى النحو العبرى على غرار ما وجدوه عند العرب من دراسات، والعربية والعبرية لغتان ساميتان ، وفوق هذا وذاك فقد كان للنحوى العربى ابن حيان قصب السبق فى محاولة تأليف نحو للغة التركية وآخر للغة الحبشية (٢) ، والحبشية من اللغات السامية . لم تكن اللغات السامية غريبة عن المشتغلين بعلم اللغة فى الحضارة العربية الاسلامية ، ولكن هذه المعرفة لم تؤد إلى قيام بحث مقارن فقد كان كل فريق يرى فى لغته المثل اللغوى الأعلى والنموذج القديم الأصيل ، وارتبطت اللغة عند هؤلاء

---

(١) سيبويه صاحب « الكتاب » أقدم كتاب وصل إلينا فى النحو العربى ، وهو من نحاة القرن الثانى الهجرى ، أما السيرافى (المتوفى ٣٦٨) فهو أهم شراح « الكتاب » نشأ فى اقليم فارس فى إيران ثم هاجر إلى بغداد ،وشرحه موجود — كاملا — فى عدة مخطوطات .

(٢) انظر المراجع المذكورة فى كتاب محمود فهمى حجازى : علم اللغة العربية (الكويت ١٩٧٣) ص ١٢٢ — ١٢٣

وأولئك بالدين ، ومن ثم فكل انحراف عن هذه اللغة وكل اختلاف عنها يعتبر انحلالا وامتهانا لها ، قدس اليهود العبرية واعتبروها لغة آدم واللغة المثلى ، وقدس المسيحيون السريانية وبالغ اللغويون العرب فى قدم العربية فجعلوها لغة آدم ولغة الجن ولغة الملائكة ولغة عالم الغيب ، نظر كل فريق للغة دينه باعتبارها أصلا ولم ينظر إلى اللغة أو اللغات نظرة تاريخية .

إن التراث العربى يعرف رغم هذا اشارتين كانتا حقيقتين ببث بذور ثورة فى علم اللغة ، الاشارة الأولى نجدها عند المفكر الاندلسى النابه ابن حزم ، يقول : « الذى وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية — التى هى لغة مضر وربيعة لا لغة حمير — هى لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها »[1] وهذا النص مهم ، فابن حزم يفرق هنا بين العربية الجنوبية التى يطلق عليها فى الكتب العربية القديمة لغة حمير وبين العربية الشمالية التى يسميها لغة مضر وربيعة ، وهو يؤكد أن العربية والعبرية والسريانية من أصل واحد وأن الهجرات أحدثت التغيير اللغوى ، وهذا ينطبق تمام الانطباق على ما يقول به الباحثون المعاصرون فى اللغات السامية . ولكن هذه الاشارة لم تدفع إلى البحث التاريخى المقارن فى هذه اللغات . وينبغى أن نشير هنا أيضا إلى أن آراء ابن خلدون ، فى اللغة لم تحدث كذلك أثرها المنشود فى البحث اللغوى . لقد افرد ابن خلدون فى مقدمته فصلا فى أن لغة العرب فى عصره — أى فى القرن الرابع عشر الميلادى — لغة مستقلة تغاير لغة مضر وحمير ، وابن خلدون لا ينظر إلى اختلاف اللغة فى عصره عن العربية الفصحى فى عصورها المبكرة باعتبارها انحلالا وفسادا أو تشويها للغة بل يؤكد أن للغة عصره ضوابط أخرى يمكن أن تدرس بها ، يقول : « ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية فى دلالتها بأمور أخرى

(١) ابن حزم : الأحكام فى أصول الأحكام (القاهرة د ت) ١/٣٠

غير موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها»[1] وهذا يتفق تماما مع ما يقوله علماء اللغات المحدثون .

ولكن كل هذه الصيحات الثورية لم تجد عند اللغويين والنحاة أى صدى على واستمروا يرددون أن العربية فسدت وأن عصور النقاء قد ولت وأن اللغة قد فسدت[2] ومضت الأمور فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب دون حس تاريخى تطورى ، فقد كانت فكرة التطور غريبة بصفة عامة ، وفى العلوم الانسانية بصفة خاصة .

وحدثت الانطلاقة الكبرى فى البحث فى مختلف اللغات بعد اكتشاف اللغة السنسكريتية ، فوجد الأوربيون فى التراث الهندى أول دراسة وصفية للغة من اللغات ، ووجدوا البحث الهندى فى اللغة قام على الملاحظة وتسجيل الواقع لا على المنطق والآراء الفلسفية ، وبدأت الدراسة اللغوية الحديثة بمقارنة اللغة السنسكريتية باللغة اليونانية واللغة اللاتينية، وأثار تشابه هذه اللغات اهتمام الدارسين، وتطورت الدراسات مع المقارنات . ومن أهم رواد علم اللغة المقارنة الباحثون الألمان بوب Bopp ، وجرم Grimm ، وبروجمان Brugmann وثلاثتهم من القرن

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ط القاهرة ١٩٦٢. تحقيق د. على عبد الواحد وافى) ١٢٧٤ — ١٢٧٥ .

(٢) أنظر هـــذه الفكرة فى كتاب الاقتراح فى أصول النحو للسيوطى (ط القاهرة ١٩٧٦) ، وعبارة السيوطى : «أجمعوا على أنه لا يحتج بكلام المولدين والمحدثين فى اللغة والعربية ص ٧٠. وتطبيق هذه الفكرة واضح فى شواهد النحو التى اقتصرت على قرنين ونصف فقط من تاريخ العربية فالشواهد من الجاهلية حتى أوائل العصر العباسى .

التاسع عشر ، فالمنهج المقارن عرف أهم رجاله وأبحاثه ونتائجه فى القرن التاسع عشر[1] .

لقد اتسمت أبحاث القرن التاسع عشر بأمرين: أولهما الوعى التاريخى والثانى البحث عن قوانين .

والواقع أن كل العلوم كانت فى ذلك القرن ذات طابع تاريخى، فبعد أن حاول دارون أن يرتب الكائنات ترتيبا تاريخيا وأعجبت العلوم الانسانية بدقة منهجه اعجابا شديدا، حاول المشتغلون بها التوسل بالمنهج التاريخى ، فالاقتصاديون أخذوا يكتبون فى تاريخ الاقتصاد ، والقانونيون يكتبون فى تاريخ القانون ودارسو الأدب يؤلفون فى تاريخ الأدب،أما أصحاب البحث فى اللغة فقد ألفوا فى التاريخ اللغوى دارسين الارتباط والعلاقات التاريخية بين اللغات محاولين تأريخ الظواهر اللغوية وترتيبها فى نسق زمنى ، وفى اطار البحث المقارن ظهر أن اللهجات هى أنظمة صوتية مثل اللغات الأدبية تماما وأن بعض اللهجات أقدم من كثير من اللغات الأدبية ، ومن هنا أخذت اللهجات مكانتها كموضوع للدراسة ، وقورنت اللغات واللهجات فى اطار المجموعة اللغوية الواحدة ، وعادت هذه المقارنات على البحث اللغوى كله بنتائج جديدة أسهمت فى إيضاح حقائق عن طبيعة اللغة وحياتها .

أما البحث عن قوانين مطردة لاتعرف الشذوذ فكان أثرا من آثار العلوم الطبيعية التى حققت باكتشافها للقوانين المفسرة التى تخضع لها الظواهر الطبيعية الكثير من النتائج ، وحاول اللغويون البحث عن قوانين مماثلة ليصبح علم اللغة من العلوم الدقيقة ، وفى تلك الظروف ظهرت فكرة القوانين الصوتية .

لقد حدث اذن تطور منهجى شامل فى علم اللغة بصفات عامة ، وعاد هذا

---

(١) حول تاريخ علم اللغة فى القرن التاسع عشر ، انظر :

R.H. Robins, A Short History of Linguistics, London, 1967 P. 164—193

بالخير على البحث فى تاريخ كل اللغـات . فدرست العربية والعبرية والحبشية والآرامية فى ظل المنهج المقارن دراسة علمية دقيقة، وعرف الباحثون لغات جديدة لم تسكن العصور الوسطى تعرف عنها شيئا ، لقد أميط اللثام عن لغة اكتشفت فى العراق مكتوبة بخط غريب يشبه المسامير وهذه اللغة المهمة هى الأكادية التى نقلت الينا حضارة العراق القديم . وبدأ البحث فى العربية الجنوبية لغة اليمن فى ماضيه المجيد وفى الفينيقية لغة ساحل الشام ، ولم تقتصر المادة الجديدة على هذه اللغات الحديثة الاكتشاف والدراسة ، بل زادت المادة فى اللغات السامية الاخرى أمام الباحثين، لقد جمعت نقوش كثيرة بكل هذه اللغات ، وحققت زخرة من النصوص تحقيقا علميا، وسجلت طائفة من اللهجات الحية فى مختلف أنحاء الشرق ، لقدزادت المادة اللغوية التى يستطيع الباحث مقارنتها زيادة ملحوظة وبدأت صورة اللغات السامية تتضح جغرافيا وتاريخيا ، وفى نفس الوقت حدث تقدم منهجى ملحوظ فى علم اللغات الهندية الأوربية وبدأ الباحثون فى اللغات السامية يستفيدون من النتائج التى حققها علم اللغات الهندية الأوربية فى دراسة اللغة . وبرز فى هذه الأثناء عدد من اللغويين العظام منهم تيودور نولدكه(١) وكارل بروكلمان(٢) ، وسار على على خطاهم أساتذة أجلاء أرسوا الدعائم الأولى لعلم اللغة فى جامعة القاهرة نذكر

---

(١) تيودور نولدكه Theodor Nöldeke رائد البحث المقارن فى اللغات السامية ، أهم بحوثه نشرت ضمن كتابيه :

Beiträge zur Serntischen Sprachwissenschaft Strassburg 1904, 1910
Neue Beiträge zur Semitischen Sparchwissenschaft, Strassburg 1910

(٢) أنظر حول كارل بروكلمان C. Brockelman حياته وآثاره . مقال المؤلف المنشور فى مجلة : الكاتب العربى القاهرة (١٩٦٨) .

منهم أنو ليتمان[١] وبرجشتراسر[٢] ومجموعة من الباحثين العرب[٣] .

إذا نظرنا اليوم بعد قرن ونصف قرن من البحث الحديث فى علم اللغة وجدنا أن العربية تأخذ بين اللغات السامية مكانا كريما ، واللغة العربية آخر لغة سامية دخلت التاريخ ولكنها دخلته مع الفتح الاسلامى والهجرات وكانت أداة التعبير فى الحضارة الاسلامية فكانت أهم اللغات السامية وأكثرها انتشارا واتصالا ، وبالاضافة إلى هذا يعدها اللغويون أقرب اللغات السامية إلى اللغة السامية الأم ، وكأنها قد حافظت فى عزلتها الصحراوية النسبية على أقدم خصائص الأسرة السامية ، ويرى الباحثون المعاصرون أن الجماعات السامية الأولى عاشت فى منطقة بادية الشام والعراق وشمال الصحراء العربية الكبرى ثم خرجت من هذا المهد الأول إلى الأقاليم المتاخمة فى هجرات توالت فى مراحل تاريخية متعاقبة . ونحن نؤرخ هذه الهجرات بتاريخ النقوش التى عثرنا عليها فى المناطق المختلفة .

أقدم سامية وصلت نقوش إلينا هى النقوش الاكادية ، وقد وجدت هذه النقوش فى أرض الرافدين مكتوبة بخط غريب الشكل هو الخط المسمارى ، ويطلق على هذا الخط هذا الاسم لأنه يشبه المسامير ، وتؤرخ النقوش المسمارية الأكادية من حوالى سنة ٢٥٠٠ ق م ، وهى بهذا أقدم النقوش السامية ، هاجر الساميون من مهدهم واتجهوا إلى أرض الرافدين فى تاريخ سابق لهذه النقوش ، والتقى المهاجرون البسطاء

---

(١) كان أنو ليتمان Enno Littmann ينشر بعض بحوثه فى مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية ، وباللغة العربية .

(٢) نشرت محاضرات C. Bergsträsser التى ألقاها بجامعة القاهرة بعنوان: التطور النحوى للغة العربية ، القاهرة ١٩٢٩ .

(٣) أنظر البحوث التى نشرها مراد كامل وفؤاد حسنين على وخليل يحيى نامى فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وكذلك كتاب الدكتور خليل يحيى نامى ، بعنوان : دراسات فى اللغة العربية ، القاهرة ١٩٧ .

بالسومريين وهم شعب سبق الساميين الوافدين فى انجاز حضارة راقية فى أرض الرافدين ، وهناك تعلم الوافدون عن السومريين الكتابة وتأثروا بلغتهم من أكثر من جانب ،وإلى جانب هذا فهناك الفاظ كثيرة نجدها فى العربية والاكادية ،ولكى لا نقول أنها استعيرت ،أو دخلت من هذه اللغة إلى تلك ،علينا أن ننظر إلىاللغات السامية الأخرى .

عرفت منطقه الشام اللغةالسامية الثانية من ناحيةعمر نقوشها ، فالأجريتية هى هذه اللغة التى لا يعرفها إلا عدد من المتخصصين ، والأجريتية لغة اكتشفت سنة ١٩٢٦ على ساحل الشام بالقرب من منطقة رأس شمراء ، فهى بهذا آخر كشف عرفه البحث فى اللغات السامية ولكنها أقدم لغة وصلت إلينا من منطقة الشام ، وقد نسبت هذه اللغة إلى اطلال المدينة التى وجدت فيها النقوش وذكر اسمها فيها وهى مدينة اجريت وتؤرخ هذه النقوش بسنة ١٤٠٠ ق م . وتكون الاجريتية مع اللغات العبرية والفينيقية والبونية المجموعةالكنعانيةمن اللغات السامية ،والعبرية أحدث عهدا من الأجريتية إذ أن قبيلة بنى إسرائيل تعلمت العبرية من الكنعانيين الأصليين عند دخول القبيلة أرض كنعان فى حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، ويمثل العهد القديم وهو كتاب اليهود المقدس المكون من التوراة والأنبياء والمكتوبات حوالى ألف عام من تاريخ اللغة العبرية ، فأقدم نصوصه من تاريخ الهجرة إلى أرض كنعان وآخرها بعد ذلك بألف عام . أما الفينيقية فلم تصل إلينا فى كتاب كالعبرية ، بل عرفناها من النقوش المتناثرة فى ساحل الشام وجزر البحر المتوسط وجنوب أوربا ، فقد كان الفينيقيون شعبا تجاريا نشطا وتركوا آثارهم أينما حلوا ، وكون الفينيقيون لأنفسهم كيانا إجتماعيا وسياسيا على ساحل البحر المتوسط فى تونس ، وتسمى الفينيقية فى إمتدادها الافريقى اللغة البونية . والنقوش الفينيقية والبونية تمتد أكثر من الف عام تبدأ فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد وتمتد حتى القرن الأول الميلادى .

عرفنا فى العراق القديم اللغة الأكادية وفى الشام القديمة اللغات الكنعانية المختلفة من اجريتية وعبرية وفينيقية ، وفى المرحلة التالية خرجت جماعات سامية أخرى إلى الشام والعراق وهؤلاء يطلق عليهم عند الباحثين اسم الآراميين . والواقع أنه لا توجد لغة واحدة أو موحدة نطلق عليها اسم اللغة الآرامية ، بل وصلت الينا عدة لهجات متقاربة اتفق على تسميتها بالآرامية أو باللهجات الآرامية . وأقدم النقوش الآرامية من القرن الثامن الميلادى ، وانتشرت الآرامية شيئا فشيئا حتى أصبحت لغة الحياة اليومية فى منطقة الشام والعراق وسادت كل المنطقة قبل التعريب أى قبل الفتح والهجرات الاسلامية . وأهم اللهجات الآرامية على الاطلاق السريانية ثم النبطية ، فالسريانية التى كانت همزة الوصل فى نقل التراث الاغريقى إلى اللغة العربية ، والنبطية كتب بها النبط والعرب قبل أن تصقل العربية كلغة ثقافة فعرفوا الكتابة وطوروها وعلموها لسائر العرب فكانت الكتابة العربية . ودراسة اللهجات الآرامية مهمة لفهم تاريخ العربية ، لغة وحضارة ، فقـــد سبقتها فى البيئة والزمان .

كل اللغات التى ذكرناها كانت من الشرق (العراق) أو الغرب (الشام) أما اللغات السامية الجنوبية فتضم العربية الجنوبية والعربية (الشمالية) والحبشة . وهذا الفرع الجنوبى له مميزاته التى تضمه مع اللغات الاكادية والكنعانية والآرامية فى أسرة واحدة ، وفيه ما يجعله فرعا متميزا داخل اطار هذه الأسرة . وصلت إلينا العربية الجنوبية القديمة فى النقوش التى جمعت فى اليمن ونجران والمحطات التجارية التى إقامها عرب الجنوب فى الشمال ، وتمتد هذه النقوش من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الخامس الميلادى ، وأهم لهجات هذه النقوش السبئية والقتبانية والحضرمية . أما اللغات السامية فى الحبشة فأقدمها لغة الجعز وهذه اللغة لم تدون إلا فى وقت متأخر ، فأقدم نصوصها يؤرخ بالقرن الرابع الميلادى ، وأهم اللغات السامية الحديثة فى الحبشة الأمهرية والتجرى والتجرينا .

وكل هذه اللغات السامية تحمل خصائص مشتركة هى الميراث السامى القديم ، ووجود هذه الخصائص ممثلة فى العربية مع أقدم اللغات السامية أو فى العربية وحدها مع الخروج عنها فى اللغات الأخرى معناه أن العربية تعرف بعض الظواهر التى تفوق الهجرة الأكادية قدما ، وقد حدثت هذه — كما أشرنا قبل منتصف الألف الثالث الميلادى ، فما هى الألفاظ المشتركة فى اللغات السامية التى ما زالت تستخدم فى العربية وعمرها الآن يجاوز الأربعين قرنا ، عرفتها الأكادية فى نقوشها سنة ٢٥٠٠ ق م وتعرفها العربية اليوم ١٩٧٧ ؟ وما مصير هذه الالفاظ العريقة الموغلة فى القدم ؟ وما الظواهر الصوتية والصرفية التى احتفظت بها العربية فى عهدها البدوى من لغة الجماعات السامية الأولى ؟

ثانيا : الالفاظ والمواد السامية المشتركة :

إن منهج المقارنة يقوم على أساس أن كل هذه اللغات إنما انحدرت من أصل واحد مشترك هو اللغة السامية الأم أو اللغة السامية الأولى (١) . فالظواهر اللغوية التى تتفق فيها كل اللغات السامية لابد وأنها موروثة فى كل هذه اللغات المختلفة عن أصل واحد مشترك وهذا الأصل الواحد المشترك هو تلك اللغة التى وجدت فى جزيرة العرب قبل هجرة الجماعات السامية التى عرفت فى العراق فيما بعد باسم الأكاديين، أى أن هذه الخصائص المشتركة ترجع إلى ما قبل سنة ٢٥٠٠ ق . م . ومعنى هذا أنه إذا اتفقت كلمتان أو صيغتان صرفيتان فى العربية والأكادية فهذا يعنى بالضرورة أن اللغتين الاكادية والعربية قد ورثتا هذا الشىء المشترك عن اللغة السامية الام . أما إذا اتفقت لغتان ساميتان أو أكثر فى ظاهرة صوتية أو صرفية أو نحوية واختلفت باقى اللغات عنها فى تلك الظاهرة فلابد من بحث تلك الاختلافات لبيان مدى قدم كل ظاهرة منها . وهكذا يمكن فى ضوء المنهج المقارن إيضاح

---

(١) اللغة السامية الأم أو السامية الأولى :

Ursemitsch = Protosemitic.

عمر كثير من الظواهر الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية الموجودة فى اللغة العربية وردها إلى اللغة السامية الأولى . وبذلك يمكن تأريخ عمر هذه الظواهر بالقرن الخامس والعشرين قبل الميلاد على أقل تقدير ، أى أنها أقدم من أقدم النقوش بحوالى العشرين قرنا .

هناك عدد كبير من الألفاظ المشتركة فى اللغات السامية ، توجد هذه الألفاظ فى كل اللغات السامية أو فى أكثرها . ووجود الكلمة فى الأكادية والاجريتية والفينيقية والعبرية والعربية الجنوبية والعربية الشمالية ولغة الجعز يؤكد أنها موروثة من اللغة السامية الأم ، وأنها أصيلة فى كل هذه اللغات ورثتها كل لغة عن اللغة الام المشتركة . والمقصود بوجود الكلمة وجود المادة اللغوية بمعنى متفق فى اللغات المختلفة أو بمعنى متقارب . فالقضية هنا تتعلق فى المقام الأول بالاشتقاق ، فالمادة (هلك) تعنى فى العربية الذهاب إلى العالم الآخر بشكل مفزع ولكن نفس المادة فى العبرية تعنى مجرد الذهاب إلى الجامعة أو إلى المدرسة أو إلى مكان . المادة واحدة مشتركة ولذا يقال بأن اللغتين قد ورثتا هذه المادة عن اللغة السامية الأم ، أما المعنى فيختلف فى العربية عنه فى العبرية مع أنه من الممكن الربط بين المعنيين.

تضم اللغات السامية بضع مئات من الألفاظ الاساسية المشتركة التى احتفظت إلى حد بعيد بمعانيها الأساسية فى كل اللغات السامية [1]. والمقصود بالألفاظ الأساسية الألفاظ التى كانت مستخدمة فى الحياة البسيطة عند الجماعات السامية الأولى للتعبير عن تلك الحياة ويمكن تصنيف تلك الألفاظ السامية المشتركة إلى مجموعات دلالية أهمها: الألفاظ الدالة على أجزاء جسم الانسان وعلى العلاقات الأساسية فى الأسرة وعلى أسماء

---

(١) انظر قائمة الالفاظ السامية المشتركة فى كتاب .

Bergsträsser, Einführung in die Semitische Sprachwi — ssenschaft, München 1963.

بعض الحيوانات والنباتات وبعض الافعال الاساسية والاعداد البسيطة .

فالكلمات الخاصة بأعضاء جسم الانسان مثل العين واليد والرجل والأذن والرأس نجدها مشتركة فى كل اللغات السامية . إن هناك اختلافات فى المكونات الصوتية لهذه الكلمات باختلاف اللغات السامية . وهذا ما يمكن بحثه بالمنهج المقارن فى اطار القوانين الصوتية . فالكلمة الدالة على الرأس مثلا فى االغة العبرية هى (روش) وهذه الكلمة تشترك مع العربية فى الراء ، والراء من الأصوات الموروثة فى اللغات السامية جميعا عن اللغة السامية الام ، ولكن الصيغة العبرية تضم بين الراء والشين ضمة طويلة تقابل الفتحة الطويلة فى العربية . ومعنى هذا أن الصيغة العربية خففت فيها الهمزة من رأس (بالهمزة) إلى رأس (بمد الف دون الهمزة) ثم تغيرت الفتحة الطويلة العربية إلى ضمة طويلة فى العبرية . هذا قانون صوتى فى علم اللغات السامية المقارن ، ويلاحظ أيضا فى المثـــال السابق أن السين العربية تقابلها الشين فى العبرية ، وهذا أيضا قانون صوتى فى اطار علم اللغات السامية المقـارن.

وتعد الكلمة الدالة على العين من الكلمات الأساسية المشتركة فى كل اللغات السامية ، والمقصود هنا بالعين ذلك الجزء فى رأس الانسان لاعين الماء ولاعين الحقيقة ولاعين الشمس فهذه التراكيب والدلالات نشأت فى فترة متأخرة . وتتيح لنا مقارنة هذه الكلمة فى اللغات السامية المختلفة خصوصا الاكادية والعربية فهما لطبيعة المنهج المقارن . فالكلمة العربية تبدأ بصوت (ع)وكذلك الصيغة العبرية والآرامية ، أما الكلمة الاكادية فهى ēnu .وترمز الشرطة الصغيرة فوق حرف e فى الخط الصوتى المتعارف عليه من المتخصصين فى اللغات السامية إلى مد الحركة أى أن الصيغة الاكادية تبدأ بفتحة ممالة طويلة . ومعنى هذا أن الصيغة الاكادية لاتبدأ بصوت (ع) بينما تبدأ الصيغة العربية لنفس الكلمة بصوت (ع) .فهل يعد هذا

الصوت من الأصوات الموروثة عن اللغة السامية الأم أم أنه صوت نشأ فى اللغة العربية ؟ هنا تفيد مقارنة بقية اللغات السامية ، وفيها نلاحظ وجود صوت (ع) فى أقدم مستويات هذه اللغات مما يوضح أن ذلك الصوت موروث فى كل هذه اللغات عن اللغة السامية الاولى ، وأن الاكادية قـــد فقدت هذا الصوت . ومعنى هذا بالنسبة للعربية أن صوت (ع) فيها وكذلك صوت (ر) وصوت (ن) من الاصوات التى ثبت أنها ترجع إلى اللغة السامية الاولى .

ويمكن ايضاح الفكرة بمثال آخر . فكلمة (حقل) فى العربية وما يقابلها اشتقاقيا فى اللغات السامية الشمالية مثل الكلمة العبرية (حيلق) تضم صوت (ح). ولكن الصيغة الاكادية eqlu لاتبدأ بصوت الحاء . ويذكرنا هذا بفقدان الاكادية أيضا لصوت (ع)، والعين والحاء صوتان حلقيان، وهنا نلاحظ أن الاكادية فقدت الصوتين الحلقيين ، ونلاحظ من الجانب الآخر بدليل الصيغ المختلفة فى اللغات السامية أن صوت (ح) موروث عن اللغة السامية الاولى .

وهكذا يتضح أن العربية تمثل هذه المرحلة الاقدم ، فاللغات السامية الاخرى تقدم — فى حالات كثيرة — الصيغة الاحدث على الرغم من قدم نقوشها ، وكأن العربية لم تصل إلينا نقوشها إلا بعد الاكادية بعشرين قرنا قد احتفظت فى عزلتها الصحراوية النسبية بعدد من الاصوات التى هجرتها لغة سامية واحدة أو أكثر من لغة .

ويلاحظ فى الاسماء المشتركة فى اللغات السامية أن الصيغة الاكادية تظهر لنا مدونة فى ثلاثة أشكال مختلفة . فالكلمه الدالة على الكلب فى الاكاديه — وهى من نفس هذه المادة اللغوية — تظهر فى ثلاثة أشكال تدوينها واضح متميز بالخط المسمارى الذى كتبت به اللغة الاكادية . وهذه الأشكال هى : kal—bum ,kal—bim ,bam ويلاحظ أن تدوين المقطع الأول متفق فى الصيغ الثلاث ولكن

المقطع الثانى يختلف من صيغة لأخرى فى تلك الكلمة . وبتتبع سياق هذه الحالات الثلاث ثبت أن الصيغة المنتهية فى الاكادية بضمة تقابل بصفة عامة حالة الرفع فى العربية ، أما الصيغة المنتهية بالفتحة فى الاكادية فتقابل حالة النصب فى العربية ، وكذلك فان الصيغة الاكادية المنتهية بالكسرة تقابل حالة الجر بالعربية . ومعنى هذا بالنسبة لعلم اللغات السامية المقارن أن النهايات الاعرابية قديمة قدم اللغة السامية الأولى ورثتها اللغتان الاكادية والعربية، وبالنسبة لتاريخ اللغة العربية يمكن القول بأن ظاهرة الاعراب تفوق الهجرة الاكادية قدما أى أنها أقدم من القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد[1] . وهكذا يوضح البحث المقارن خصائص بنيوية فى اللغة العربية ويرجعها إلى هذا التاريخ الموغل فى القدم .

ويوضح البحث المقارن طبيعة مواد لغوية كثيرة فى العربية أثارت إنتباه اللغويين وخلافهم أيضا[2] . فكلمة (مدينة) لاترجع إلى المادة (مدن) على الرغم من وجود الكلمات : مدن وتمدن ومدينة ، بل ترجع إلى المادة (دين) ، فاللغات السامية تعرف الدين بمعنى القانون ، والديان فى العربية والعبرية هو القاضى ، وبيت الدين هو مقر الحكم والمحكمة فى العبرية ، ونعرف فى العربية الدائن والمدين مصطلحين قانونيين . فالمادة كلها تعنى القانون وما يتعلق به من ضوابط

---

(١) وجود اللانهايات الاعرابية فى الآكادية ينفى كون النحاة العرب قد بالغوا فى شأنها وأن « حركاتنا الاعرابيه ليست رموزاً لغوية تشير إلى الفاعل أو إلى المفعولية ، او غيرذلك » قارن هذا الرأى عند ابراهيم انيس، فى : من أسرار اللغة ١٨٣ — ٢٥٨،وهو أيضا رأى المستشرقين فولرز Vollers وكاهله Kahle.

(٢) ذكرها الفيروزابادى فى القاموس المحيط فى مادة (مدن)، ولم يشر إليها فى مادة (دين) ، وانظر أيضا متابعة الشدياق له على الرغم من نقده فى كنز الرغائب (مطبعة الجوائب بالاستانة ١٢٨٨هـ) ١/٣ .

والتزامات . أما الصيغة ذات الميم التى نجدها فى كلمة مدينة فقد ظهرت فى الآرامية بمعنى وحدة إدارية قضائية هى المدينة والقرى المجاورة التابعة لها . وعندما استخدمت الكلمة فى العربية بأن اطلقت على يثرب كان هذا فى عصر النبوة أول إستخدام لهذه الكلمة العربية فيما يبدو ، واستمرت الكلمة فى العربية على مدى القرون .

ثالثا : الاصول اللغوية بين الثنائية والثلاثية :

كان نحاة القرن الثانى الهجرى أقدم من حاول تصنيف أبنية المفردات فى اللغة العربية ببحث أصولها وتحديد أوزانها . وفى كتاب سيبويه — وهو أقدم كتاب وصل الينا فى النحو العربى جهد كبير فى بحث الأنماط الصرفية ، وفيه نجد فكرة الميزان الصرفى الذى كان مفتاح فهم طبيعة بنية الكلمة لافى العربية فحسب بل فى اللغات السامية الأخرى أيضا .

وتقول هذه الفكرة بوجود حروف أصول وحروف زيادة ، الحروف الأصول هى ما يرمز لها فى الميزان الصرفى بالفاء والعين واللام وحرف الزيادة ما يأتى بالاضافة إلى الحروف الاصول[1] . فاذا قارنا بين الكلمات « كتب وكاتب ويكتب ومكتوب وكتابة ومكتب ومكاتبة » لاحظنا ارتباط فكرة ما بالكاف والتاء والباء بهذا الترتيب . وكى نوضح هذا نقول : إن المادة « كتب » ليس لها وجود مباشر فى الواقع اللغوى ، ولابد من وضع حركات بين الكاف والتاء ، وبين التاء والباء كى نحصل على صيغة الفعل الماضى ، ولو تصورنا أن الأصل هو هذه الصيغة كاملة بصوامتها وحركاتها لكننا فى وهم ، فالثابت فى المادة هى الحروف الاصول كما يقول النحاة وهى الكاف والتاء والباء على ذلك النحو التجريدى الذى ليس له وجود مباشر .

---

(١) أنظر تفصيل الفكرة فى : الكتاب (ط هارون) ٢٣٥/٤ وما بعدها .

قال أكثر النحاة العرب بثلاثية الاصول ، وقابلوا هذه الأصول الثلاثة بالفاء والعين واللام ، ويرمز إلى ماقل أو زاد عن ذلك فى وزن الكلمة ،فكلة «كاتب»، بوزن فاعل ، شأنها فى هذا الشأن : قائل ، خالق ، ماهر عرفنا هذا بالمقابلة بين مفردات كثيرة بها الكاف والتاء والباء ، وزدنا بين الفاء والعين فتحة طويلة وبين العين واللام كسرة ، وهكذا حددنا هذا الوزن ، أما كلمة : مر وعد وبع وقل » فأوزانها على التوالى ، عل ، عل ، فل ، فل ، وذلك باعتبار أن فاء الفعل أو عين الفعل قد سقطت وهو ماعرفناه كذلك بالمقابلة بين كلمات من نفس المادة ، مثل «امر ويأمر وامرا . . الخ » هذا هو منهج النحاة العرب فى تحديد الحروف الأصول ومقابلة الزيادة والنقص فى الميزان الصرفى .

وعندما بدأ البحث المقارن فى اللغات السامية زاد مجال المقابلة ، فاتضحت اشياء خالفت الرأى الشائع عند جمهرة النحاة العرب ، ولننظر معا فى بحث اللغوى العربى الرائد الخليل بن أحمد[1] الذى كان صاحب فكرة الميزان الصرفى فى العربية مقارنين نظرته بجهد علماء المقارنات فى أمثلة بعينها . فقد لاحظ الخليل أنه قد جاءت اسماء لفظها على حرفين وتمامها على ثلاثة أحرف ، مثل : « يد ، ودم و وفم » فالخليل يتجاوز الثنائية التى تبدو فى هذه الكلمات ليحاول بدراسة الكلمات المعروفة من نفس المواد تحديد حروفها الأصول ، ومنهجه واضح فى هذا فهو يقول : « فاذا أردت معرفتها فاطلبها فى الجمع والتصغير »وهنا نلاحظ مثلا أن كلمة يد وردت الينا فى كلمات أخرى مثل أيديهم ، ويديه (بتشديد الياء الثانية وفتحها) وهنا يلاحظ الخليل ان هذه الكلمة لابد وانها من الياء والدال والياء ، فهى على هذا ثلاثية الأصول وما يبدو منها كلمة « يد » ليس كل الأصول بل يظهر حرفان أصليان

(١) انظر مقدمة كتاب العينى ، تحقيق عبد الله درويش ، بغداد ١٩٦٦ ، وكذلك مانسبة سيبويه فى الكتاب إلى الخليل من آراء فى الميزان الصرفى .

من ثلاثة . وشبيه بهذا ما فعله الخليل بن أحمد فى دراسته لكلمة « دم » فقد لاحظ وجود صيغ من نفس المادة وبها أصوات ثلاثية بدت له هى الحروف الاصول ، ودرس الخليل كذلك كلمة « فم » ولاحظ التثنية : « فموان » والجمع : « أفواه » فاستقر لديه أن الاصل هنا ثلاثى مكون من الحروف ف م و .

غير أن البحث اللغوى المقارن فى القرن التاسع عشر انطلق من مادة أكثر فأدى بنا إلى نتائج مغايرة ، لقد قارن اللغويون اللغات السامية المختلفة ، ومنها العربية والعربية الجنوبية والحبشية والعبرية والفينيقية والآرامية والاكادية بحثا عن الشكل الأقدم الذى خرجت منه هذه اللغات ، فانتهى البحث بهم إلى أن اللغات السامية تعرف الاصل الثلاثى أساسا لأكثر المفردات ولكن عددا منها قد تطور عن أصل ثنائى ، وقد أبرز نولدكه فى دراسة له عن الأسماء الثنائية فى اللغات السامية أن أسماء مثل : « يد ، ودم ، أم » من هذه الثنائيات المغرقة فى القدم والتى عاشت إلى يومنا هذا ، وان تلك الصيغ التى تبدو من هذه المواد وكأنها ثلاثية تفسر باعتبارها تمثل اتجاها فى التطور نحو الثلاثية . بل وظهر باحثون يقولون بالأصل الأحادى لكلمة « فم » ، فالأصل فى رأيهم هو تلك الفاء التى تظهر عنصرا مشتركا فى كلمات هذه المادة فى اللغات السامية ، وهى تظهر مثلا فى الكلمة العربية التى رددتها كتب النحو العربى فى تناولها الاسماء الستة ، وهى كلمة (فو / فا / فى) رفعا ونصبا وجرا ، فهى تتكون من هذه الفاء وقد لحقتها حركة الاعراب طويلة ، وهكذا أظهر البحث الحديث تعديلا لفكرة الاصل الثلاثى التى سادت عند جمهرة النحاة [1] .

هذا وأدت النظرة الحديثة فى ألفاظ عربية كثيرة إلى ايضاح ثنائية الأصول

---

(١) أهم بحث فى الأسماء ذات الأصل الثنائى :

Theodor Nöldeke, Zweiradikalige Substantiva, in, Neue Beiträge, Strasburg 1910.

لعدد آخر من الكلمات . ولنقارن مثلا كلمة « سخف » التي تبدو لأول وهلة بوزن « فعل » بكلمة « خف » التي تبدو أول الأمر تعديلا طفيفا لوزن فعل أيضا ، وبالفعل « استخف » لنلاحظ علاقة دلالية وعلاقة اشتقاقية ، فاللغات السامية تجعل من الثقل احتراما ورجاحة عقل وقديما قالوا « أحلامه تزن الجبال رزانة » وتجعل العبرية الاحترام من مادة « ك ب د » الدالة على الثقل والرزانة وتكبد المشاق ، وعلى العكس من هذا نجد الخفة والسخف والاستخفاف ، وهنا نلاحظ أن المادة الأصلية لكلمتي « سخف ، خف » لابد وان تكون واحدة ، هي الخاء والفاء . الأصل على هذا ثنائي وسع عندما كانت اللغات السامية تستكمل ملامح الثلاثية ، وذلك باضافة السين فتكونت صيغة « سخف » وبتضعيف الفاء ، فتكونت كلمة « خف » . ومثل هذا نلاحظه بمقارنة كلمة « سكب » ، « كب » في الفصحى والعامية . فالدلالة واحدة — والاشتقاق واحد ، كلتاهما من أصل واحد هو الكاف والباء ، ثم وسعت الصيغة الثنائية الأولى بالسين فظهرت كلمة « ساكب »، وبتشديد الباء ، فنجمت صيغة « كب » فاضافة السين والتضعيف وسيلتان توسلت بهما اللغات السامية في استكمالها لملامح الثلاثية في بناء الكلمة .

وهناك ألفاظ أخرى يتضح منها الأصل الثنائي وقد وسع بالنون ، ولنقارن الكلمات : « ذل ، نذل »، لنلاحظ أن من ذل فهو نذل ، بل وتحول إلى « دلدول» كما نقول في اللهجة القاهرية ، ويتضح لنا من هذه الأمثلة أن الأصل الكامن وراء هذه الكلمات كان ثنائيا مكونا من الذال اللام . وينبغي أن نطبق هنا القانون الصوتي القائل (بتحول الذال في اللهجة القاهرية إلى دال) ثم وسع هذا الأصل الثنائي بطرق مختلفة منها اضافة النون ، فتكونت كلمة « نذل ». ومثل هذا نلاحظه في : « قص ونقص » فقص الشعر انقاص له وقص القماش كذلك ، والأصل ثنائي وسع هنا بالتشديد وهناك باضافة النون ، وهذا ما نجده إذا قارنا : « جس ونجس»، فلمس بعض الأشياء — في تصور ما انجاس للامسها أو للشيء ، وواضح أن الاشتقاق واحد وقد وسعت المادة بالتضعيف هنا وباضافة النون هناك .

وهكذا اتخذت العربية وسائل مختلفة لتكوين كلمات فيها محولة اياها من الثنائية الاولى إلى الثلاثية الشائعة .

وربما لا يخطر ببال العارفين بكتب النحو أن هناك وزنا يطلق عليه فى علم اللغة المقارن وزن شفعل أو سفعل وأن هذا الوزن هو وزن التعدية القياسى فى بعض اللغات السامية(١) ولننظر إلى كلمة شعلق وشقلب وسهمد . . . الخ . كل هذه الكلمات نعرفها فى اللهجات العربية وقد يبدو لأول وهلة أنها كلمات مستحدثة ، والواقع انها ليست كذلك بل هى رواسب لوزن استخدم قديما فى اللهجات العربية الجنوبية القديمة التى وصلت من القرن الخامس قبل الميلاد فصاعدا ، ان العربية الشمالية لا تعرف هذا الوزن وتستخدم للتعدية عدة أوزان منها أفعل وفعل (بالتشديد) ، ونحن لا نستخدم فى العربية الفصحى الفعل شعلق بل علق ، ولا نستخدم شقلب بل نقول قلب أو قلب ، ونقول مهد بدلا من سهمد . والسين والشين هنا وهناك ليستا أصليتين بل هما من أحرف الزيادة . وهذا الوزن من أقدم الأوزان التى عرفتها اللغات السامية ، ويفيد التعدية أى تكوين فعل متعد .

رابعا : تاريخ المفردات فى ضوء علم اللغة المقارن :

أفاد البحث اللغوى الحديث فى القرن التاسع عشر فى ايضاح جوانب كثيرة حول المفردات العربية ، فقد أوضحت القوانين الصوتية التى لاحظها علماء المقارنات تاريخ بعض الألفاظ ، نحن نتحدث اليوم عن « ثغر » مثل ثغر الاسكندرية ،

---

(١) من أقرب اللغات إلى العربية الشمالية — لغة النقوش اليمنية القديمة ، وتضم عدة مستويات لغوية ، منها : المعينية التى تكون صيغة التعدية بالسابقة (س) ، أنظر :

A. F. L. Beeston, A descriptive Grammar of Epigraphic South Arabian, London 1962, P. 7.

ونتحدث عن « الترعة » ، وكلاهما من أصل اشتقاقى واحد ، وكى نوضح هذا نقول بأن الثاء فى العربية تقابل التاء فى الارامية والشين فى العبرية ، وعلى هذا فالمادة العربية (ث غ ر) تقابل العبرية (ش ع ر) والارامية (ت ع ر)[1] . وتعنى هذه المادة السامية الباب أو الفتحة أو الشق ، وتعنى كلمة (ثغر) فى الاستخدام العربى القديم مدن الحدود التى تعتبر مدخل البلاد ، والثغر مدخل الطعام والشراب إلى داخل الانسان ، غير أن المادة الارامية (ت ع ر) تحولت بالقلب المكانى إلى (ت ر ع) والحقت بها الفتحة الطويلة علامة للتعريف فصارت (ت ر ع ا) ، وعندما سمعت الكلمة الارامية (ترعا) ظن متلقوها العرب أنها من المؤنث فعاملوها معاملة المؤنث ، وهكذا نتحدث اليوم عن « الترعة » .

أما كلمة « أهل » فتقابل كلمة « أوهيل » فى العبرية ، ولكن الكلمة العبرية تعنى الخيمة ، وكأن المعنى العبرى هو الأقدم فاطلقت فى العربية على الخيمة ثم على من بها . ويبدو أن كلمة « أهل » من المعجم السامى القديم ، فنحن لا نقول هنا باستعارتها من لغة سامية لأخرى ، فالفصل فى هذا يتم بمراعاة قوانين المقابلات الصوتية ، فلو كانت كلمة « ترعة » عربية قديمة لاحتفظت بالثاء العربية لا بالتاء الارامية ولاحتفظت بالغين العربية لا بالعين الارامية . ولنأخذ كلمة أخرى توضح لنا القوانين الصوتية كونها مستعارة ، وهى كلمة « تلميذ » فالكلمة ذات أصل (ل م د) فى اللغات السامية ففى الحبشية (لمد) وهى كذلك فى لغات سامية شمالية مثل العبرية والارامية ، غير أن كلمة « تلميذ » عرفتها الارامية بنفس صيغتها هذه ،

---

(١) حول المقابلات الصوتية فى اللغات السامية المختلفة ، أنظر :

Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik, Berlén 1908, I.

أى بذال ، والذال فى الارامية صورة صوتية للذال تأتى هكذا بعد الحركات ، ومعنى هذا أن العربية لم تعرف هذه الكلمة بين الألفاظ العربية القديمة ولو عرفتها لاحتفظت بالدال ، ولكنها استعارتها من الارامية فكانت بالذال ، واستقرت الكلمة فى العربية فاشتققنا منها « تتلمذ ، تلميذة . . الخ » .

ومن الالفاظ الدخيلة فى العربية كلمة (سكين) وهى فى الارامية (سكينا)، وهنا نجد دليل استعارتها أن السين هنا وهناك ، ومعروف أن الشين العربيه تقابل سينا آرامية ، فلو كانت الكلمة من الميراث السامى القديم لكانت هذه الكلمة بالشين فى العربية ، وهنا دليل آخر على كونها من الارامية فهذه الكلمة تنتهى فى الاستخدام العامى بفتحة طويلة هى علامة التعريف الارامية ، سمعها المتلقون العرب كما لو كانت علامة تأنيث ومن ثم نجمت فى اللهجات العربية صيغة « سكينة » عن « سكينا » الارامية[1] .

أن الحديث عن العربية واللغات السامية الأخرى طويل ولكننا نكتفى بأن نقرر هنا مع الباحثين أن العربية قد احتفظت بعدد من الظواهر اللغويه التى تفوق الهجرة الاكادية سنة ٣٥٠٠ ق.م قدما وأن مقارنةالعربيةباللغات السامية الأخرى توضح جوانب الاشتقاق فى كثير من الامور التى حار اللغويون فىالفصل فيها وأن هناك تطورا عرفته اللغات الساميه فى الاصوات والصيغوالدلالة . وأنه منالممكن تمييز الاصيل فى العربية الموروث عن اللغة السامية الام عن الدخيل من إحدى اللغات السامية إلى العربية فى ضوء القوانين الصوتية وفوق هذا وذاك فالعربية هى أقرب اللغات السامية إلى اللغة الام ، ومن ثم فهى أساسالمقارنات وقدأفادتنا

---

(١) أنظر حول الالفاظ الآرامية المعربة كتاب .

S. Fraenkel, Die aramäischen Fremdwörter im Arabischen, Leiden 1886. =

هذه المقارنات فى كشف التاريخ السحيق لكل لغة من اللغات السامية . وهنا نحن قد أرخنا لبعض ظواهر العربية بما قبل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد .

= وحول الالفاظ العربية فى ضوء اللغات السامية ، أنظر ما كتبه برجشتراسر ، فى : التطور النحوى للغة العربية .

وجرجى زيدان ، فى اللغة العربية كائن حى (طبعة الهلال ـ القاهرة)

الفصل الثالث

الحياة اللغوية فى جزيرة العرب قبل الاسلام

وصلت الينا اللغة العربية الشمالية فى نقوش قديمة ، وعرفناها فى الشعر الجاهلى والقرآن الكريم وفى تلك اللهجات البدوية التى سجلها اللغويون العرب من القرن الثانى الهجرى .

أولا : النقوش العربية القديمة :

أهم مجموعات النقوش العربية القديمة هى النقوش الثمودية والصفوية واللحيانية[1] وقد وجدت هذه النقوش فى أماكن كثيرة من المنطقة نصف الرعوية نصف الزراعية بين صحراء الجزيرة العربية وتخوم الشام والعراق ، كما وجد بعضها فى شبه جزيرة سيناء . وتنسب النقوش الثمودية إلى قبيلة ثمود التى جاء ذكرها فى القرآن الكريم والمعروفة فى التاريخ الجاهلى ، أما النقوش الصفوية فتنسب إلى المنطقة التى وجدت فيها مجموعات كبيرة منها بالقرب من جبل الصفا على مقربة من دمشق . وتنسب النقوش اللحيانية إلى دولة لحيان فى شمال غربى الجزيرة العربية .

وقد دونت هذه النقوش بخط مأخوذ عن الخط العربى الجنوبى القديم ، وهذا الخط أبجدى يدون الصوامت تدوينا كاملا ولكنه لا يدون الحركات الطويلة ولا الحركات القصيرة ، ولا توجد فى هذا الخط رموز دالة على التشديد أو التضعيف.

---

(١) أهم الدراسات العامة لهذه النقوش .

E. Littmann, Thamud und Safa, Leipzig 1940,

ولذلك لاتقدم لنا النقوش العربية الشمالية القديمةإلا صورة تقريبية عن الخصائص اللغوية لهذه النقوش فاذا ما وجدنا مثلا الصوامت (ع ل م) يمكن أن تكون الكلمة المقصود هى الفعل (علم) أو الفعل (علم) بتشديد اللام أو كلمة (علم) بكسر العين أو اسم الفاعل (عالم) أو صيغة فعيل (عليم) أو صيغة فعال (علام) والذى يحدد لنا اختيار هذه الصيغة دون الأخرى هو السياق العام للجملة .

وهناك خلاف بين الباحثين فى تاريخ هذه النقوش ، وذلك لأن الاشارات التاريخية فيها نادرة على نحو يسمح بالاجتهاد البعيد دون الوصول إلى يقين ويرى كثير من الباحثين أن أقدم هذه النقوش هى النقوش الديدانية اللحيانية وترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد ، أما باقى النقوش اللحيانية فتمتد بعد ذلك إلى القرن الأول الميلادى أو القرن الثانى الميلادى ، وتاريخ هذه النقوش موضع خلاف بين الباحثين . أما النقوش الثمودية فقد امتدت فترة أطول ، فقد أرخ الباحثون أكثرها بالقرن الخامس قبل الميلاد ، ويرجع أحدثها إلى القرن الرابع الميلادى تقريبا أما النقوش الصفوية فبعضها يرجع إلى القرنين الثانى والثالث الميلادى ، وهناك نقوش أقدم ونقوش أحدث .

تتفق النقوش الحيانية والثمودية والصفوية من الناحية المعجمية اتفاقا بعيداً مع العربية الجاهلية كما وصلت الينا فى الشعر الجاهلى فأسماء الأعلام : بدر ، زيد ، مطر ، نوفل ضيف ، والأفعال : ندم ، لعن ، سمع ، قتل ، رعى مما نجده فى النقوش وفى الشعر الجاهلى . وهناك نقوش اهتم كاتبوها بتسجيل أنسابهم على نحـــو اهتمام البدو بالأنساب . أما من ناحية بنية اللغة فهذه النقوش يمكن أن تقرأ فى إطار معرفتنا بعربية الشعر الجاهلى ، بل ويمكن تفسير الظواهر المختلفة فى ضوء معرفتنا باللهجات العربية القديمة ، فمثلا الاسم (ذ) فى هذه النقوش يذكرنا بما نسب قديما إلى لهجة طىء ، وقد ذكر النحاة قديما أن الاسم الموصول عندهم (ذو) . وأما استخدام الهاء للتعريف فيشير إلى ما تعرفه لهجات عربية شمالية إلى اليوم عندما نجد الهاء

للاشارة والتعريف معا ، فأهل الشام يقولون ، هالولد والهالبنت . وهكذا يمكن اعتبار النقوش هذه من أقدم صور العربية ويمكن على الرغم من تدوينها بالصوامت دون الحركات التعرف على جملة من الخصائص اللغوية وعلى مفردات هذه النقوش التى تمثل مرحلة مبكرة فى تاريخ اللغة العربية .

ثانيا ـ اللهجات البدوية القديمة :

اعتمد اللغويون العرب فى القرن الثانى الهجرى على جمع اللغة من بعض القبائل العربية التى كانت لغتها قريبة من لغة الشعر الجاهلى والقرآن الكريم . لم يكن جمع اللغة عندهم عملا شاملا يهدف إلى استيعاب الحياة اللغوية فى أنحاء جزيرة العرب ، وإنما اقتصر عمل هؤلاء اللغويين على تلك القبائل التى لاحظوا أن لغتها تشبه فى خصائصها المختلفة اللغة الفصيحة ، ومن ثم وصفت هذه القبائل بأنها فصيحة . وهكذا قاس جامعو اللغة المستويات اللغوية المختلفة فى جزيرة العرب بمعيار اللغة الفصحى ، واعتبروا أى اختلاف عنها خروجا عن النمط اللغوى الصحيح وفساداً لا يقبل ، ومن ثم أهمل اللغويون تلك اللهجات التى أصبح البون بينها وبين الفصحى شاسعا ولم ينظروا إلا فى اللهجات التى تقترب من اللغة الفصحى ، وهى لهجات الحجاز وتميم وهذيل وطيء . وهى لهجات حافظت على خصائص لغوية قديمة نسبياً[1] ، مما يسمح لنا أن نجعلها امتدادا مباشراً للاستخدام اللغوى قبيل الاسلام ، وقديما أفاد اللغويون من هذه اللهجات والمستويات اللغوية لفهم لغة الشعر الجاهلى والقرآن الكريم .

---

(١) أنظر لدى السيوطى فى المزهر ٢١١/١ والاقتراح ص ٥٦ ـ ٥٧ ، قائمة بالقبائل التى أخذت عنها اللغة وعن القبائل التى رفض اللغويون فى القرن الثانى أخذ اللغة عنها .

سجل كتاب سيبويه فى أبوابه المختلفة عدة ظواهر لغوية منسوبة إلى لهجات عربية قديمة ، ويتضح من تتبع هذه الظواهر أن العربية الفصحى كما نعرفها فى إنشاد الشعر الجاهلى والقراءات الصحيحة للقرآن الكريم لا تطابق بصورة مباشرة احدى هذه اللهجات . فهناك فروق بين العربية الفصحى وبين لهجة الحجاز ، وثمة فروق أخرى بين العربية الفصحى ولهجة تميم ، وهكذا باقى القبائل[1] .

نسب سيبويه تحقيق الهمز إلى تميم ، أما تخفيف الهمز فينسب إلى لغة الحجاز[2] . والمقصود بتحقيق الهمز نطق الهمزة نطقا متميزا باعتبارها أحد الصوامت وتنطق الهمزة نتيجة إغلاق لحظى فى أقصى الحنجرة ثم حدوث انفراج مفاجىء والهمزة المحققة أحد الصوامت . أما عند تخفيف الهمزة فلا تنطق الهمزة همزة وإنما تنطق باعتبارها حركة طويلة ، فكلمة (رأس) تنطق هكذا بالتحقيق، يقابلها فى التخفيف (راس) على نحو ما كان فى لهجة الحجاز قديما وعلى نحو ما تعرف فى اللهجات العربية الحديثة . ومن هذا الجانب تتفق لهجة تميم مع العربية الفصحى فى تحقيق الهمز .

ناقش سيبويه اختلاف اللهجات القديمة من ناحية وجود الامالة أو عدم وجودها[3] . والمقصود هنا بالامالة نطق الفتحة الطويلة نطقا يجعلها بين الفتحة الصريحة والكسرة الصريحة . فى الكلمات : عالم ، عابد ، مساجد لاحظ سيبويه أن بعض القبائل تنطق الفتحة الطويلة ممالة ، وعلل ذلك بتأثير الكسرة الموجودة فى بنية الكلمة ومعنى هذا أنه فى تلك اللهجات كانت الفتحة الطويلة تنطق على

---

(١) أفضل دراسة عربية عن « اللهجات العربية فى التراث » من تأليف أحمد علم الدين الجندى ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٢) الكتاب ٢/١٦٣ .

(٣) الكتاب ٢٥٩ .

نحوين اثنين ، ان كانت بالقرب من كسرة تنطق بالامالة وفى غيرذلك من المواضع كان النطق دون إمالة. ومعنى هذا أن الفتحة الطويلة الممالة إنما تأتى فى محيط صوتى بعينه دون غيره ولذا فهى صورة صوتية والفتحة الطويلةغير الممالة صورة صوتية اخرى . فالوحده الصوتية الخاصة بالفتحة الطويلة لها فى النطق صورتان إحداهما بالامالة والأخرى بلا إمالة . وأخيرا فلا بـــد من الاشارة إلى أن لهجة الحجاز القديمة لم تكن تعرف الامالة وكانت الفتحة الطويلة فيهـــا تنطق نطقا موحدا .

ويرتبط عدم وجود الامالة فى لهجة الحجاز بظاهرة مقاربة وهى ما سماه سيبويه باسم الاتباع[1] . ويطلق اللغويون المحدثون على هذه الظاهرة مصطلح التوافق الحركى : Vocalic harmony والمقصود بهذهالظاهرة تأثير حركة أساسية على الحركات التالية للوحدات الصرفية المقيدة . فنحن نقول فى العربية الفصحى منه بضم الهاء ، فوقه بضم الهاء وكتابه بضم الهاء أيضا. ولكننا نقول : به ، فيهِ، (بكسر الهاء) ، عليه (بكسر الهاء) . أى أن الضمير فى الأمثلة الأولى هو هاء بعدها ضمة وفى الأمثلة الثانية هو هاء بعدها كسرة . وقد جعل سيبويه الأصل هو الضم . أما الكسر فقد جاء اتباعا للكسرة أو للياء فى الحرف السابق على الضمير . ومعنى هذا أن الكسرة أتت بكسرة ، وهذا هو المقصود بالتوافق الحركى[2] . أما أهل الحجاز فكانوا فى لهجتهم بعيدين عن التوافق الحركى فكانوا يجعلون حركة الضمير هى الضمة بغض النظر عن الحركة السابقة. وكان أثر هذا فى قراءتهم

---

(١) الكتاب ٢٩٣/٢ .

(٢) التوافق الحركى مصطلح حديث يعنى أن الحركة الأولى فى الكلمة ــ أو ما يشبه الكلمة ــ تؤثر فى الحركات التالية اللواحق هذه الكلمة ، وهى ظاهرة قياسية مطردة فى اللغات الأورالية الألتائية ، ولا سيما فىاللغة التركية،وهذه الظاهرة قليلة فى العربية .

للقرآن الكريم واضحا ، فبينما كان غيرهم يقرأ : « فخسفنا به وبداره الأرض » بكسرة بعد الهاء كان الحجازيون يستخدمون الضم دون أن يستشعروا حاجة إلى التوافق الحركى . ومن هذه الناحية كانت اللهجات القديمة تختلف عن بعضها البعض اختلافا بعيدا . فأهل الحجاز لا يعرفون فى لهجتهم ظاهرة التوافق الحركى ، والعربية الفصحى تعرف التوافق الحركى فى مواضع بعينها ولا تعرفه فى مواضع أخرى وكانت قبيلة ربيعة تمضى بالتوافق الحركى إلى صيغ تعرفها العربية الفصحى دون توافق حركى فمثلا فى كلمة (منهم) كان الحجازيون لا يعرفون التوافق الحركى وكذلك الفصحى ولذا فالهاء مضمومة ، أما عند قوم من ربيعة فقد كانت هذه الكلمة تنطق بكسر الميم والهاء والميم.

وقد أدى وجود التوافق الحركى فى لهجة تميم وعدم وجوده فى لهجة الحجاز إلى وجود توازن بين وزن فعيل بكسر الفاء عند تميم يقابله وزن فعيل بفتح الفاء عند أهل الحجاز(١) . وعلى هذا نجد كلمات مثل : لئيم ، شهيد ، سعيد ، نحيف ، ظريف ، بخيل بوزنين مختلفين ، أحدهما يمثل لغة الحجاز والآخر يمثل لغة تميم .

وتتفق العربية الفصحى مع لهجة الحجاز وحدها فى حركة أحرف المضارعة(٢). فقد كانت كل اللهجات العربية القديمة التى اعترف سيبويه بفصاحتها تكسر أحرف المضارعة ، إلا لهجة الحجاز فقد كانت تفتح أحرف المضارعة . قال سيبويه أن كسر أوائل الأفعال المضارعة فى لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز . ومعنى هذا أن الفعل (يعلق) كان ينطق بفتح الياء عند الحجازيين وفى الفصحى ، ولكنه كان ينطق بكسر الياء عند أبناء القبائل الأخرى . وقد استقرت الصيغة الحجازية فى الفصحى واستمرت الصيغة الأخرى فى اللهجات العربية إلى اليوم ، على نحو ما نلاحظ مثلا فى اللهجة المصرية .

---

(١) الكتاب ٢/٢٥٥ .

(٢) الكتاب ٢/٢٥٦ .

ذكر سيبويه أيضا اختلاف اللهجات القديمة فى الحالة الإعرابية للاسم الثانى بعد ما النافية وهو المعروف بخبر « ما » . فالحجازيون يجعلون خبر ما منصوبا والتميميون يجعلونه مرفوعا[1] . فاذا كان الحجازيون يقولون : ما عبد الله أخاك فقد كان التميميون يقولون : ما عبد الله أخوك . وقد جعل اللغويون فى الآية الكريمة : « ما هذا بشرا » ان نصب خبر ما على لغة أهل الحجاز ، وكان سيبويه قد لاحظ أن بنى تميم يرفعون الخبر فى الآية الكريمة « إلا من عرف كيف هى فى المصحف » ، وكذلك الحال فى الآية « ما هن أمهاتهم » قرأها الحجازيون بكسر التاء باعتبار خبر ما منصوبا بالكسرة . أما بنو تميم فكانوا يقرأون الآية برفع خبر ما .

ان اللهجات البدوية القديمة فى جزيرة العرب لا تستوعب الحياة اللغوية قبيل ظهور الإسلام . فالشعر العربى الجاهلى وصل إلينا بلغة موحدة أو تكاد تكون موحدة . فاذا كان ثمة اختلاف بين شاعر وآخر فى الاستخدام اللغوى فهو اختلاف فى إطار اللغة الواحدة هو اختلاف فردى فى إطار المستوى اللغوى الواحد . لقد شارك فى تأليف هذا الشعر شعراء ينتمون إلى قبائل شمالية مختلفة كما نظمه شعراء ينتمون إلى قبائل من أصل عربى جنوبى ، كانت قد هاجرت إلى الشمال وتعربت بعربية الشمال قبل الاسلام ، ومن أشهر هؤلاء أمرؤ القيس وقبيلته كنده ذات الأصل الجنوبى . لقد كانت هذه اللغة المشتركة وسيلة للتعبير الادبى عند هؤلاء جميعاً ، تجاوزت اللهجة القبلية المحلية لتصبح بذلك المستوى اللغوى الذى تلتقى حوله القبائل المختلفة . ويبدو أن اللغة الأدبية المشتركة كانت تستخدم فى أسواق العرب وفى اللقاءات الدينية والاجتماعية وفى التعامل بين القبائل ولذا كان من الطبيعى أن يكون القرآن الكريم « بلسان عربى

(١) الكتاب ١/٢٨ .

مبين ، وألا يكون محليا فى التعبير بلهجة ما بينمـا الإسلام دعوة إلى تجاوز المحلية القبلية إلى أفق عالمى أرحب[1].

(١) فكرة فضل قريش ولغة قريش مرتبطة بظروف النظم الحاكمة فى القرن الرابع الهجرى ، فقد تجاوزت فكرة المساواة فى الاسلام إلى تفضيل « عترة » الرسول على سائر البشر ، ودعمت ذلك بفكرة « فضل قريش » ، « ولغة قريش » . والقرآن الكريم أرفع من مثل هذه اللهجات المحلية ، إنه (بلسان عربى مبين) الشعراء ١٩٥ ، صدق الله العظيم .

الفصل الرابع

العربية في عصر الحضارة الاسلامية

كان ظهور الاسلام وما أعقب الفتوح الاسلامية فى منطقة واسعة من العالم القديم أهم الأحداث التى نقلت اللغة العربية من مجالها البدوى المحدود فى شمال الجزيرة العربية لتصبح بمضى الوقت أهم لغات الحضارة فى العصور الوسطى . لقد كانت العربية قبل عصر الحضارة الاسلامية لغة الاعراب البدو المقيمين فى النصف الشمالى من الجزيرة العربية ونصف البدو المتناثرين فى بعض مناطق بادية الشام والعراق ، كما كانت العربية أيضا لغة المدن العربية مثل مكة والطائف . هؤلاء البدو والحضر فى شمال الجزيرة العربية لم يكونوا أصحاب حضارة راقية إذا ما قورنوا بأبناء المناطق القريبة منهم فى الشام أو العراق أو مصر ، ولذا كانت العربية تعد لغة محلية يتعامل بها أبناؤها فى أمور حياتهم الداخلية ولا يهتم بها أحد من غير أبنائها(١).

أولا: موجات انتشار العربية :

وتعد المنطقة الجنوبية من جزيرة العرب أول منطقة انتشرت فيها العربية الشمالية قبيل ظهور الاسلام فقد بدأ تعريب النصف الجنوبى من الجزيرة العربية قبل الاسلام. يضاف إلى هذا أن القبائل الجنوبية الاصل التى هاجرت من جنوب الجزيرة العربية قبل الاسلام إلى شمال الجزيرة العربية كانت قد أخذت فى مهجرها الجديد تتعرب بلغة الشمال . وهكذا كانت العربية الشماليه تنتشر بين أبناء العربية الجنوبية الذين

---

(١) أنظر فى دائرة المعارف الاسلاميه — الطبعه الجديدة مادتى :
Encyclopaedia of Islam Arabs, Arabiyya

ظلوا فى وطنهم القديم والذين هاجروا إلى الشمال[1] .

ويعد التحول من العربية الجنوبية إلى العربية الشمالية أمر آسهلا وذلك لأن اللغتين متقاربتان ، وكلتاهما ترجع إلى الفرع الجنوبى من اللغات السامية . ولكن التحول من لغة إلى لغة يترك تأثيرات من اللغة الأقدم فى استخدام اللغة الجديدة ، ولذا فقد ظل نطق الجيم الشديدة كما كانت تنطق فى العربية الجنوبية القديمة وباقى اللغات السامية موجودا عند عرب الجنوب حتى بعد تعريبهم بلغة الشمال [2]، وكان لهذا أثره فيما بعد فى بعض مناطق مصر التى تعربت عن طريق عرب الجنوب ، ولو كان هؤلاء الجنوبيون قد احتفظوا بلغةالجنوب قبل هجرتهم إلى مصر احتفاظاً حقيقياً لتعربت مصر بالعربية الجنوبية لا بالعربية الشمالية ، وهذ ما لم يحدث .

لقد خرجت قبائل كثيرة من جزيرة العرب إلى المناطق المفتوحة ، وهذه القبائل بعضها عربى شمالى وبعضها عربى جنوبى كان قد تعرب بلغة الشمال. هاجرت هذه القبائل على مراحل زمنية متتابعة ، وكانت الهجرات الحاسمة بالنسبة للمشرق والاندلس فى عصر الخلفاء الراشدين والعصر الاموى . اتجهت هذه الهجرات شرقا إلى العراق وإيران ووصل بعضها إلى منطقة السند التى تقع الآن فى الباكستان ، واتجهت الهجرات غربا إلى مصر وعن طريق المغرب إلى الاندلس . هاجرت هذه القبائل إلى تلك المناطق ولكنها لم تذب فيها، فقد حرمت الحكومة الاسلامية ـ عقب الفتح فى عهد عمر بن الخطاب ـ على العرب الوافدين امتلاك الارض الزراعية وفرضت

---

(١) ولهذا فان تعريب هؤلاء الجنوبيين بلغة الشمال ، ينفى الشك فى شعرهم المنظوم بلغة الشمال ، وهو شك قام على أسس ـ منها ـ أن لغة الشعر شمالية ، والشعراء جنوبيون ، والواقع أنهم من أصل جنوبى هاجروا وتعربوا بلغة الشمال.

(٢) الجيم السامية القديمة ـ بدليل كل اللغات السامية ـ كانت صوتا شديداً على نحو ما نسمع إلى اليوم فى لهجة القاهرة . وقد تحولت إلى المركب الاحتكاكى فى العربية الفصيحة .

عليهم الاقامة فى المدن الجديدة التى خططت لهم . وتعد الكوفة والبصرة والفسطاط أشهر المدن التى أقامت فيها القبائل العربية ، يضاف إلى هذه المدن مدينة القيروان واقليم خراسان . لقد خططت المدن التى أقام فيها العرب على أساس قبلى فكل قبيلة أو تجمع قبلى كان له قسم من المدينة يقيم فيه . وهكذا عاشت القبائل العربية فى تلك الأمصار فى عزلة نسبية عن السكان الاصليين . وأدت هذه العزلة إلى عدم ذوبان الوافدين العرب فى السكان الأصليين ، وبقيت العربية لغة للفاتحين المنتصرين فأصبحت ذات مكانة مرموقة فى تلك المجتمعات (١).

وظلت اللغة العربية سمة الانتماء إلى الطبقة العليا فى تلك المجتمعات بعد الفتح على مدى أجيال . كان الحكم فى العصر الأموى عربيا ، وكان العرب يعدون أنفسهم الطبقة الحاكمة ، ولذا كان لهم مقابل بقائهم فى تلك الامصار عنصرا حاميا للدولة العربية عطاء مادى تمنحه الدولة لكل واحد منهم . وهكذا ظل التحدث بالعربية البدوية سمة انتماء إلى الطبقة الارستقراطية الحاكمة . وكان من الطبيعى فى هذا الاطار أن يحرص سادة البيت الأموى ومن يحاكونهم من العرب على تنشئة ابنائهم — المولودين فى المناطق المفتوحة — فى بيئة عربية بدوية ، ولذا كان الابناء يرسلون إلى البادية لاكتساب اللغة العربية على نحو استخدامها عند البدو الفصحاء حتى يستقيم لهؤلاء الابناء الانتظام فى الطبقة الحاكمة وحتى يتضح تميزهم عن الطبقات الدنيا . والكتب العربية حافلة بروايات تذكر أن سادة المجتمع وامراء البيت الاموى كانوا ينظرون نظرة فزع إلى أى خطأ لغوى يقع فيه أبناؤهم ، وكانوا يحرصون كل

---

(١) انظر البحث القيم الذى كتبه المستشرق يوهان فك عن ذلك فى كتابه : العربية ، دراسات فى اللغة واللهجات والاساليب ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار القاهرة ١٩٥١ .

الحرص على أن يستخدم أبناؤهم اللغة العربية وينطقون بها على النحو الذى يعرفه البدو الذين لم تفسد لغتهم بالاختلاط بالاعاجم .

وفى تلك المجتمعات التى ضمتها الدولة الاسلامية فى العصر الاموى كان التحدث بغير العربية سمة انتماء إلى الطبقات الوسطى والدنيا . ففى هذه الفترة كانت الطبقات الوسطى والدنيا ما تزال مرتبطة إن قليلا أو كثيرا باللغات التى سادت تلك الاقاليم قبل الفتح الاسلامى كانت القبطية لغة الطبقات الشعبية فى مصر ، وكانت اللهجات الآرامية المختلفة تسود أكثر مناطق الشام وبعض مناطق العراق ، وظلت اللهجات الايرانية الوسيطة المختلفة وسيلة التعامل المحلى فى شرقى الدولة الاسلامية وفى نفس الوقت كانت اللهجات العربية الجنوبية المختلفة ماتزال تستوعب الحياة اليومية فى جزء من الجنوب العربى لم يكن قد تعرب بعد بلغة الشمال . وهذه العلاقات اللغوية والاجتماعية جعلت التحدث بالعربية البدوية دليلا على التفوق الاجتماعى بينما كان استخدام اللغات الاخرى دليلا على عكس ذلك

لقد تمت الفتوح فى اطار الدعوة الاسلامية ، والاسلام يقوم على ما جاء فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، ولذا فقد ارتبطت العربية منذ الفتح الاسلامى بالدين الجديد . ليس معنى هذا أن كل من دخل فى الاسلام كان عليه اجادة العربية فالدخول فى الاسلام لا يشترط اجادة العربية ، ولكن كل من أراد تعمقا فى فهم القرآن الكريم وبحثا لاحكامه وكل من أراد الاشتغال بعلم الحديث رواية أو دراية فقد كان من واجبه أن يتعلم العربية وأن يتقن فهمها ، ولذا فهناك مؤلفات كثيرة فى علوم القرآن ومصنفات مبكرة فى الحديث الشريف أعدها مسلمون من أصول غير عربية ، رغبوا فى ذلك فكان من الطبيعى أن يتعلموا العربية لغة القرآن الكريم ولغة التأليف فى العلوم الاسلامية الناشئة . ولذا ارتبط معدل تأثير العامل الدينى فى تعلم العربية بدرجة التدين ودرجة الاهتمام العلمى بنصوص القرآن والحديث .

وكان تعريب الدواوين عاملا مهما في تدعيم مكانة اللغة العربية في الدولة الاسلامية. فقد ظلت العربية بعيدة عن الاستخدام الكامل كلغة رسمية للدولة عدة أجيال بعد الفتح ، كانت الادارة العليا أى الخليفة والولاة الكبار يتعاملون باللغة العربية ولكن باقى الجهاز الادارى للدولة الاسلامية كان يتعامل فى أكثر الاحوال بلغات أخرى غير العربية . وقد ظلت القبطية واليونانية لغتى التعامل الادارى المحلى فى مصر . أما فى العراق فقد بقيت البهلوية لغة للدواوين ولكن تعريب الدواوين نقل العربية إلى مستوى الاستخدام الكامل فى جهاز الدولة الاسلامية فاصبح لزاما على كتاب الدولة أن يتعلموا الكتابة بالعربية ، وهكذا اهتم كثيرون من أبناء الجماعات اللغوية غير العربية بتعلم العربية واجادة الكتابة بها وأصبحوا من كبار كتاب الدولة الاسلامية . وتم هذا التحول فى أواخر القرن الاول الهجرى السابع الميلادى ، وبذلك أصبحت العربية لغة الدولة الاسلامية بلا منافس .

وكانت العربية فى تلك الفترة أيضا لغة الابداع الفنى المعترف به من الدوائر الحاكمة والطبقات العليا . لقد عرفت الامصار الجديدة نشاطا شعريا متنوع الجوانب، ويكفى أن نشير إلى النقائض باعتبارها أبرز صور هذا النشاط . وإلى جانب النشاط الادبى فى الدوائر العربية عرفت الجماعات الاخرى أفرادا كثيرين دفعهم نزوعهم الفنى إلى تعلم العربية لكى ينظموا بها شعرا يفيدهم فى حياتهم الشخصية ويرفع مكانتهم فى المجتمع ، فالشاعر زياد الاعجم — كما يبدو من اسمه — من أصل غير عربى ، تعلم العربية وأجادها ليؤلف بها شعرا . وكان نطقه بالعربية مشوبا بلكنة أعجمية فأهداه أحد الولاة غلام سليم النطق ليقوم بلقاء شعره . ويبدو أن اجادته للصياغة العربية فى بنية الكلمة وبنية الجملة كانت أمرا مشهودا له ، حتى أن سيبويه لم يجد بأسا من الاستشهاد بأبيات من شعر زياد . وهكذا كان العامل الادبى وراء اجادة آحاد مرموقين للغة العربية فى العصر الاموى .

وهكذا تضافرت عدة عوامل لتجعل اللغة العربية موضع اهتمام الجماعات المختلفة فى الدولة الاسلامية .وقد حدث التعريب شيئا فشيئا ،فالتحول اللغوى سواء أكان فى لغة الحديث أم لغة الكتابة لا يتم فى جيل واحد، بل يمتد إلى أكثر من جيل . وتعتمد سرعة التحول على عوامل كثيرة ،منها مدى القرابة بين اللغة القديمة واللغة الوافدة.ولذا فقد تعربت مناطق السهول فى الشام والعراق فى مرحلة مبكرة نسبيا . فقد كانت اللهجات الارامية المختلفة متقاربة فى بنيتها وقريبة من العربية ، ولذا كان من السهل على المتحدث بالآرامية أن يتعلم العربية بينما لم يكن التحول من القبطية أو البربرية إلى العربية بنفس الدرجة من السهولة ، ولذا تم تعريب مصر فى فترة زمنية أطول من الفترة التى عربت فيها المناطق السهلة من سوريا والعراق واليمن . وما تزال فى تلك المناطق جزر لغوية غير عربية ، فالقرى الارامية فى شمال العراق والشام توجد فى مناطق جبلية منعزلة نسبيا فى أقصى جنوب الجزيرة العربية . ومعنى هذا أن انتشار العربية ارتبطت سرعته ببنية اللغة الأقدم فى المنطقة وبدرجة اتصال المنطقة بالبيئة العربية .

وقد تم تعريب مصر عن طريق هجرات متتابعة بدأت عقب الفتح واستمرت دون انقطاع عدة قرون بعد ذلك . ويلاحظ أن قبائل كثيرة من عرب الجنوب الذين كانوا قد تعربوا بالعربية الشمالية قبيل الاسلام قد عرفت طريقها إلى مصر فى وقت مبكر ، من هذه القبائل قبيلة جذام (بضم الجيم وفتح الذال) . يضاف إلى هذه القبائل ذات الأصل الجنوبى قبائل أخرى من أصل شمالى ، منها بنو سليم وعدة قبائل من قيس . ويعد بنو هلال من أكبر التجمعات القبلية الشمالية التى هاجرت إلى مصر فى العصر الفاطمى . وقد وقف التعريب فى مصر عند حدود دولة النوبة فلم تدخل منطقتهم فى إطار الدولة الاسلامية إلا بعد أكثر من أربعة قرون بعد الفتح الاسلامى لمصر .

وكان العامل الحاسم فى تعريب المغرب هجرة جماعات كبيرة من بنى هلال من

مصر متجهين غربا . وتعد « تغريبة بنى هلال » أهم الأحداث التى خلعت على المغرب طابعا عربيا [1] . وكانت موجة الفتح ذات أثر محدود فى تعريب المغرب ، فعرب الفتح كانوا قليلين وعبر أكثرهم إلى الأندلس ، ولذا لم يتعرب عن طريق عرب الفتح إلا منطقة محدودة على الساحل التونسى مركزها القيروان . ولذا كانت هجرة بنى هلال فى منتصف القرن الخامس الهجرى ثم اختلاطهم مع البربر وتكوين جيل جديد من البربر المتعربين أهم أحداث المغرب فى العصور الوسطى . وقد ارتبطت موجات تعريب صقلية ومالطة بالعربية فى المغرب ، وكان للهجرات العربية من الأندلس أثرها فى تدعيم مكانة العربية فى المغرب .

وهناك هجرات عربية أخرى أسهمت فى تعريب مناطق مختلفة من القارة الافريقية ، أهمها الهجرات العربية إلى موريتانيا ومالى ، والهجرات العربية إلى السودان ، والهجرات العربية إلى الساحل الشرقى من القارة الافريقية . وقد حدثت هذه الهجرات على مدى عدة قرون ، وكان من نتيجتها أن أصبح الناطقون بالعربية فى أفريقيا يشكلون ما لا يقل عن ٧٠٪ من الناطقين بالعربية فى العالم المعاصر .

ثانيا : العربية بين البداوة والحضارة :

ظلت العربية عدة قرون فى تاريخها الطويل لغة بدوية تعبر عن حاجات القبائل التى عاشت فى شمال الجزيرة العربية . وعندما اتسعت رقعة الدول الاسلامية بعد الفتح دخلت العربية مناطق جديدة ذات حضارات قديمة ، ولكن الاعجاب بلغة البدو باعتبارهم المصدر الحى الوحيد للعربية جعل للبدو مكانة حاسمة فى قضايا اللغة . كانت العوامل الحضارية المختلفة تدفع إلى اكتساب العربية ، ولم تكن العربية متاحة إلا عند البدو . ولذا ظل البدو هم الحجة فى قضايا اللغة عدة أجيال . وعرف البدو طريقهم إلى الأمصار يقدمون ما عندهم لمن يرغب فى اكتساب العربية أو التأليف

---

(١) حول بنى هلال ، انظر : العبر ٨/٦ والصفحات التالية .

فيها . فعرفت مجتمعات العراق والشام عددا من البدو الوافدين المعتمدين على ثقة المجتمع فى صحة لغتهم ، وجاء هؤلاء واستقروا على مقربة من المدن يبيعون الغريب لكل لغوى يلجأ اليهم و يعلمون اللغة لمن يريد ذلك . وعندما اختلفت سيبويه مع الكسائى فى مدى صحة العبارة « فاذا هو هى » أو « فاذا هو إياها » كان البدو هم الحكم فى قضايا اللغة (١) .

كان الامويون مرتبطين بالبادية مؤمنين بضرورة تنشئة الأبناء فى بيئة لغوية بدوية ، ولكن العباسيين أرادوا لأبنائهم اللغة البدوية وحياة الحضارة ، فظهر الأعراب فى قصور السادة الجدد يعلمون اللغة . وهكذا اختلفت الصورة : كان الأبناء يرسلون إلى البادية فأصبح الأعراب يفدون إلى القصور يعلمون اللغة .

يبدو أن المثقفين فى القرن الثانى الهجرى كانوا يستخدمون العربية فى حديثهم فى المجالات العلمية ، وأنهم لم يقتصروا على استخدام العربية لغة تأليف . وهناك أخبار كثيرة تنسب بعض الأخطاء اللغوية إلى بعض الرواه والعلماء فى حديثهم بالعربية ، ولكن هذه الأخبار المحدودة تعكس حقيقة أن الحديث كان بالعربية الفصحى ، ولذا ذاعت هذه الأخطاء ولو كان حديثهم باللهجات المحلية لما كان من الممكن تحديد هذه الأخطاء . وفى نفس الوقت كانت اللهجات المحلية المختلفة تتكون فى الأقطار المفتوحة وكانت وسيلة التفاهم عند السواد الأعظم من سكان الدولة الاسلامية . ولذا اهتم اللغويون منذ أواخر القرن الثانى الهجرى بتسجيل ظاهرة « اللحن » أى الخطأ اللغوى .

واقدم رسالة فى هذا الموضوع تنسب للغوى الكوفى الكسائى (ت ١٨٩ هـ)(٢)

---

(١) انظر هذه القضية ، فى مغنى اللبيب لابن هشام (ط القاهرة) ١/٨٨ .

(٢) نشرت هذه الرسالة ، بعنوان: ما تلحن فيه العامة للكسائى، ضمن: ثلاث رسائل ، بتحقيق عبد العزيز الميمنى ، بالقاهرة ١٣٤٤ هـ .

وهكذا عرف القرن الثانى الهجرى عدة مستويات لغوية ، فاللهجات البدوية تعد امتدادا للعربية الفصحى قبيل ظهور الاسلام ، واللهجات المحلية فى الأمصار ثمرة اختلاط العرب الوافدين بالسكان الأصليين ،والعربية الفصحى أخذت فى التكوين على المستوى الثقافى لتصبح لغة التعبير فى المجالات العلميه .

ويعد دخول العربية إلى مجال التأليف العلمى أهم مراحل التحول من البداوة إلى الحضارة . فالتراث العربى قبل الاسلام كان يتركز فى الشعر القديم والأمثال ، ثم جاء القرآن باللغة العربية . ولم تعرف اللغة العربيه كتباً مؤلفة أو مترجمة إلا فى أواخر العصر الأموى ، وكان ابن المقفع (ت ١٤٢ ﻫ) من أوائل من طوعوا العربيه لتصبح لغه تأليف، وذلك عندما ترجم اليها مجموعة من الكتب أشهرها كليلة ودمنة . وهكذا دخلت العربية مجال التأليف وأدى هذا إلى حدوث تجديد لغوى بعيد المدى أوضح سماته ظهور المصطلحات العلمية . لقد اكتشف الخليل أوزان الشعر العربى ، وكان عليه أن يسمى تلك الأوزان فوضع لها أسماء لم تكن تخطر للشعراء على بال ، لقد أخذ مصطلحات الطويل والخفيف والبسيط والكامل من لغة الحياة العامة واستخدمها بدلالة جديدة [١] . وعندما ألف سيبويه فى النحو العربى أفاد من مصطلحات الخليل ومعاصريه ، فظهرت فى كتابة مصطلحات مثل : الإسم والفعل ، والحرف [٢] ، والهمس ، والجهر ، والشدة ، والرخاوة ، وكل هذه الكلمات مأخوذة عن مواد معروفة فى لغة البادية وعن كلمات متداولة ، ولكن استخدام هذه الكلمات بشكل محدد باعتبارها مصطلحات علمية هو ذلك الجديد الذى جعل هذه الكلمات غير مفهومة عند البدو ، ولكنها متداولة عند المثقفين .

---

(١) لاحظ هذا ــ الجاحظ فى البيان والتبيين ، بتحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٣٩/١ ــ ١٤٠ .

(٢) الكتاب ١/١ ، ٤٠٤/٢ (ط بولاق) .

وقد لاحظ الجاحظ أن المصطلحات التى استدعت الحركة العلمية وجودها قد جدت فى العصر العباسى ، وأن « المتكلمين أشتقوا من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم فصاروا فى ذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع ولذلك قالوا العرض والجوهر وأيس وليس وفرقوا بين البطلان والتلاشى وذكروا الهوية والماهية وأشباه ذلك . كما وضع الخليل بن أحمد لأوزان القصيد وقصار الدرجاز القابا ، ولم تكن العرب تتعارف تلك الأعاريض بتلك الالقاب وتلك الأوزان بتلك الاسماء ، كما ذكر الطويل والبسيط والمديدوالوافر والكامل وأشباه ذلك كما ذكر الاوتاد والاسباب والخرم والزحاف. وكما سمى النحويون فذكروا الحال والظرف وما أشبه ذلك ،وأصحاب الحساب قد اجتلبوا أسماء. وجعلوها علامه للتفاهم » [1] . فالجاحظ لاحظ وضع هذه الاسماء عند أصحاب العلوم المختلفه لتؤدى معانى اصطلاحيه متعارفا عليها عندهم ، وهى كلمات أما جديدة فى الصياغة مثل الماهية والهوية أو ذات معنى إصطلاحى جديد مثل البسيط والكامل . وهكذا نشأت الحاجة إلى المصطلحات الحضارية والعلمية ، وهى مصطلحات لا تعرفها لغة البادية . ولم يعد المثقف يحتاج معرفة دقيقة بالكلمات الخاصه بالابل والتمر وما عند البدو من معجم حى ، فأصبح الاهتمام بمثل هذا المعجم البدوى من عمل اللغويين وشرائح الشعر القديم . ولكن المؤلف فى علم الكلام أو الفقه أو التصوف أو النحو والمترجم فى العلوم والرياضيات والطب له حاجات لغوية أخرى .

قد أدى وجود العربية لغة للتأليف والترجمة فى العلوم المختلفة ونموها للتعبير فى هذه المجالات إلى عدم الحاجة إلى اللغة البدوية ، ولذا قل الاهتمام العام بلغة البدو فى القرن الثالث الهجرى بصورة مطردة . والفت كتب كثيرة لتعليم اللغة ، فاصبحت

---

(١) البيان والتبيين ١/١٣٩ — ١٤٠

اللغة تؤخذ من الكتب لا من البدو ومن أشهر الكتب التى الفت لتعليم اللغة الفصيحة لمن ينشدها كتاب اصلاح المنطق لابن السكيت (ت ٢٤٤ ﻫ)[1] وكتاب أدب الكاتب لابن قتيبه (ت ٢٧٦ ﻫ)[2] وفى القرن الرابع الهجرى ظهرت كتب أخرى من أهمها : جواهر الالفاظ لقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ ﻫ)[3] ومتخير الالفاظ لاحمد بن فارس (ت٣٩٥ﻫ)[4]والالفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمدانى (ت ٣٢٧ ﻫ)[5] . وفى القرن الرابع أيضا بدا تأليف كتب نحوية تعليمية يضم الواحد منها القواعد الاساسية للنحو فى أوراق قليلة . وأهم هذه الكتب : كتاب

---

(١) هذا الكتاب ليس فى المنطق صنو الفلسفة ، بل هو فى المنطق بمعنى اللغة فهو كتاب لغوى فى الأبنية أهتم مؤلفه بصفة خاصة بالأبنية التى كانت قد تغيرت فى الاستخدام اللغوى عند العامة فى عصره . حقق الكتاب أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـــ القاهرة ١٩٤٩

(٢) هذا الكتاب فى التثقيف اللغوى يهدف إلى أن يقدم للمتأدبين معلومات أساسية عن الكتابة وضوابطها وعن الأبنية ودلالاتها وغير ذلك مايحتاجه الكاتب من أداة لغوية . حقق الكتاب المستشرق ماكس جرونيرت فى ليدن(١٩٠٠-١٩٠١) ثم نشره محمد محى الدين عبد الحميد بالقاهرة .

(٣) هذا الكتاب مصنف على أساس الموضوعات ، يهتم داخل الموضوع الواحد ببيان الفروق بين المفردات و يذكر لكثير منها تعبيرات تضمها وسياقات توضح إستخدامها ، نشر الكتاب محمد محى الدين عبد الحميد بالقاهرة ١٩٣٨

(٤) هذا الكتاب مصنف صغير رتبت فيه الكلمات على أساس الموضوعات، يذكر بعض التعبيرات الموضحة لاستخدام الكلمة وتميزها عن غيرها ، نشر الكتاب هلال ناجى ، بالمكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط د. ت (١٩٧٠؟)

(٥) هذا الكتاب مصنف صغير مرتب وفق الموضوعات هدفه أن يذكر =

الموجز لابن السراج (ت ٣١٦ هـ)[١] والجمل للزجاجي (ت ٣٣٧ هـ)[٢] والايضاح للفارسي (ت ٣٧٧ هـ)[٣] واللمع لابن جني (ت ٣٩١ هـ)[٤] . وهذه الكتب تعليمية موجزة الفت لجمهور المتلقين ولذا قرئت كثيرا وشرحت مرارا. وهكذا أصبح تعليم اللغة من ناحية المفردات والبنية يتم عن طريق الكتب ولم يعد أحد يأخذ اللغة عن البدو .

وبينما كانت اللهجات المحلية تنمو بشكل مطرد وتبعد بذلك عن اللهجات القديمة وعن الفصحى القديمة وكانت العربية الفصحى تنمو في المجال الثقافي لغة للعلم والفكر ظل الشعر داخل الضوابط اللغوية أو على الاقل حاول الشعراء ان يلتزموا خصائص لغة الشعر القديم كما قننها اللغويون وحاول الشعراء التعمق في دراسة النحو ، وكثيرا مافاقوا النحاة في معرفتهم بدقائق النحو العربي والمتنبي صاحب معرفة ممتازة بالنحو[٥] وكان أبو العلاء المعري نحويا أيضا[٦] . وحاولا الافادة من هذه المعرفة المكتسبة بقواعد اللغة ومفرداتها المكتسبة ، وأمكن لهما أن يجيدا التعامل الفني بهذه اللغة ، وهو أمر ماكان متاحا إلا للشعراء الكبار . ولكن الشعراء عموما ظلوا يحاولون

= التعبيرات الخاصة بكل معنى من المعاني ، نشر الكتاب عدة مرات بالقاهرة ١٢٣٣هـ وكذلك في المطبعة الكاثوليكية ببيروت .

(١) نشر بتحقيق مصطفى الشويمي في بيروت ١٩٦٦

(٢) نشر بتحقيق بن شنب في باريس ١٩٢٧ ، ١٩٥٧

(٣) نشر بتحقيق حسن الشاذلي فرهود — بالقاهرة ، ١٩٧٠ .

(٤) حققه محمود حجازي وفهمي أبو الفضل ضمن مطبوعات مركز تحقيق التراث بدار الكتب بالقاهرة (تحت الطبع)

(٥) أنظر يوهان فك ، في : العربية ١٦٨ — ١٨٠

(٦) طبع للمعري كتاب نحوي لغوي عنوانه : رسالة الملائكة ، بيروت د.ت

الالتزام بالضوابط القديمةولم تكن محاولتهم تجاوزها مقبولة من الناحية اللغوية .

ثالثا : اللغة العربية فى عصور الدول الاسلامية المتاخرة

كانت العربية فى فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية لغة عالمية استوعبت مجالات التعبير فىفروع المعرفة المختلفة ، الف بها مؤلفون من جماعات لغوية مختلفة وكانت العربية الوسيلة المشتركة للتعبير عندهم جميعا . والتراث العربى ثمرة جهود مؤلفين ينتمون إلى مناطق كانت لها لغاتها المحلية ولكن هـــذه اللغات لم يكن استخدامها يتجاوز الحياة اليومية فقد كانت العربيةلغة العلم والثقافة بلا منافس لقد عاش ابن سينا فى منطقة عرفت لغات تركية وإيرانية مختلفة ، وينسب الفارابى إلى الترك ، وعاش ابن خلدون فترة من حياته فى بيئة لغوية عربية بربرية . ولكن هؤلاء جميعا الفوا باللغة العربية .

ان أهم العوامل التى قللت من مكانة اللغة العربية فى المجال الحضارى الدولى كانت ظهور دول حاكمة فى شرقى الدولة الاسلامية تعترف بالعربية فى اطار الدراسات الدينية فقط ، ثم قيام دول اسلامية أخرى فى غرب الدولة الاسلامية تضع العربية فى اطار الدراسات الدينية . لقد نشأت فى إيران دول فارسية مسلمة زاد الاهتمام فيها باللغة الفارسية بصورة متزايدة . لقد كان ابناء اللغات الايرانية يتعاملون بها كلغات محلية ويؤلفون بالعربية فى القرن الثانى والقرن الثالث كل مؤلفاتهم، وبدأت اللغةالفارسيةتنافسالعربية فىايران فىمنتصف القرنالرابع وبدأ الادب الفارسى. وزاد إستخداماللغة الفارسيةفى التأليف وقلاستخدام اللغة العربية بصورة مطردة . أصبحت الفارسية لغة الدولة ولغة المؤلفات التاريخية والادبية والصوفية والفلسفية ولم تعد العربية تستخدم إلا فى المجال الدينى . وهكذا فقدت اللغة العربية مكانتها القديمة فى إيران والمناطق الشرقية من الدولة الاسلامية .

ويلاحظ فى المؤلفات الفارسية فى القرن الخامس الهجرى والقرون التالية أنها اعتمدت اعتمادا كليا على المصطلحات العلمية العربية فكانت العربية هى لغة الأساس أو اللغة المصدر التى أخذوا منها المصطلحات أو اشتقوا من موادها اللغوية مصطلحات جديدة . ومن هذا الجانب كانت العربية تقوم بدور يشبه الدور الذى قامت به اللاتينية فى مرحلة تكون اللغات الوطنية الحديثة فى أوربا ،ففى الكتابات العلمية الألمانية والروسية تؤخذ المصطلحات عن كلمات أو مواد لغوية لاتينية أو يونانية .أما الأفعال والصفات وأدوات الربط والضمائر فتؤخذ من اللغة التى يفترض الانسان أنه يكتب بها .

وعندما كانت الدولة السلجوقية تضم قسما كبيرا من شرق ووسط العالم الاسلامى كانت العربية فى اطار الدراسات الاسلامية، فالمدرسة النظامية التى تأسست سنة ٤٥٩ هـ تهتم باللغة العربية الفصحى فى عصورها المبكرة لأن هذا يعين على فهم الدين ، أما لغة الدولة فقد كانت الفارسية . وقد درس فى المدرسة النظامية أساتذة مشهورون منهم أبو زكريا التبريزى (ت ٥٠٢ هـ) ويلاحظ عند مؤلفى الكتب العربية فى هذه الفترة تدين شديد جعلهم يذكرون أن أشرف العلوم علم الكتاب والسنة وأن اللغة العربية مفتاح الدراسات الدينية .

لقد ضمت الدولة العثمانية بعد ذلك غرب العالم الاسلامى ووسطه وشماله فى دولة واحدة . كانت لغة الادارة العليا فى الدولة العثمانية هى اللغة التركية وهى أيضا لغة الادارة المباشرة فى كثير من الاقاليم . وكانت القاب الوظائف الكبرى القابا تركية ، ففى مصر كان الديوان الكبير وهو مجلس الحكم فى البلاد يضم عن كل أوجاق موظفين ثلاثة: الاغا والدفترار والرزنامجى، والكلمات أوجاق واغا ودفتردار ورزنامجى القاب وظيفية تركية الاوجاق يعنى المنطقة، والاغا قائد الحامية، والدفتردار مدير المالية ، والروزنامجى حافظ السجلات . وكانت أهم وظائف الدولة فى يد العناصر غير العربية وفى مقدمتها المماليك فشيخ البلد وأعضاء الديوان والكشاف كانوا

يختارون من بينهم . فاذا أضفنا إلى ذلك الحامية التركية والمتركة فى كل أقاليم الدولة علمنا أن كل مراكز القوة كانت فى يد غير العرب وإذا كانت اللغة التركية لغة الطبقة الحاكمة .

وفى نفس الوقت كانت اللهجات المحلية فى الاقاليم العربية من الدولة العثمانية تستوعب الحياة اليومية عند الجماهير الشعبية وأدت صعوبة الاتصال عند المناطق التى تسودها اللهجات المحلية إلى الانقسام المطرد لكل لهجة من هذه اللهجات ، فأصبحت لهجة كل تجمع حضرى أو ريفى فى الاقاليم العربية المختلفة تختلف بشكل ما عن أقرب التجمعات منه .

ظل الازهر خلال الحكم العثمانى مصباحا عربيا ينير الطريق فى ظلمات حالكة ولكن بتأسيس المدارس الحديثة التى أمر بها محمد على لتخريج موظفين ولتطوير البلاد وتكوين الجيش فقد الأزهر مكانته الرائدة ،وأصبح رجال الأزهر لا يمثلون المستقبل بقدر ما مثلوا ارتباط الجماهير بالدين . لم يكن مجال العمل فى أجهزة الدولة بحاجة إلى ماعند الأزهر من شروح وملخصات ، ولذا فلم تكن لرجاله وظائف مرموقة فى جهاز الدولة ، وكان معظم الطبقة الصاعدة مع الاحتكاك بالحياة الأوربية من المثقفين ثقافة حديثة ، وظل الأزهر فى عروبته رمزا للكفاح الشعبى من أجل البقاء ولكنه كان كفاح الجماهير العربية العريضة الفقيرة .

وهكذا ارتبطت اللغة العربية طوال هذه الفترة بالطبقات غير الحاكمة فى المجتمع فالمتحدثون بالعربية كانوا يمثلون الطبقات المحكومة وكانت العناصر الحاكمة من أصول غير عربية وكانت العناصر العسكرية المسيطرة من أصول غير عربية أيضا . كانت الطبقات الارستقراطية ذات النفوذ من غير العرب فالمماليك الذين حكموا وقتا طويلا انما جلبوا من مناطق مختلفة فى وسط آسيا وبعد دخول العثمانيين كانت الطبقات غير العربية فى المجتمع تحتفظ لنفسها بكل الوظائف الراقية التى كانت وقفا على المتحدثين بالتركية .

وهكذا ارتبطت دراسة العربية الفصحى فى الوجدان الشعبى بدراسة الدين واصبح رجل الدين والمتخصص فى العربية شخصا واحدا هدفه الدين ووسيلته العربية .. وأصبح الحديث باللهجات العربية واستخدام هذه اللهجات للابداع الفنى دليلا على الضعة الاجتماعية وكانت التركية لغة السياسة والادارة والطبقات الحاكمة فى المجتمع .

الفصل الخامس

القضية اللغوية والحضارة الحديثة

اولا : اللغة العربية فى بداية النهضة الحديثة :

كانت بداية النهضة الحديثة فى مصر فى عهد محمد على، ثم محاكاة التجربة المصرية فى تونس فى عهد أحمد باى (١٨٣٧ — ١٨٥٥) باكورة اللقاء العربى بالحضارة الحديثة والعلم الحديث، وظهرت مع هذا اللقاء مشكلة التعبير باللغة العربية عن الحضارة الأوربية والعلم الوافد.

ومعنى هذا أن هذه القضية اللغوية لا تتعلق بالبيئات اللغوية التقليدية ولا بالمدارس الأجنبية فى العالم العربى. أما المدارس التقليدية مثل الازهر والقرويين والزيتونة والمدارس المماثلة فلم تكن تواجه مشكلة لغوية، لأن التدريس فيها كان يقوم على كتب عربية قامت بدورها على تراث ممتد فى التاريخ الحضارى العربى دون انقطاع، وكانت مصطلحات الفقه والنحو التفسير والحديث متداولة معروفة عند علماء هذه البيئات [١].

ولم تهتم هذه البيئات العلمية فى القرن التاسع عشر بالتقدم العلمى الاوربى

---

(١) يعطى الجبرتى فى مؤلفاته التاريخيه، ومنها : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (ط القاهرة ١٩٦٤) تراجم كثيرة لأعلام العصر، وبها إجازات العلماء وتضم أسماء الكتب التى أجيزوا بها والتى أجازوا تلاميذهم بقراءتها.

ولم تقتبس من العلم الحديث شيئا ، وظلت قائمة بدورها فى دراسة هذه الكتب الموروثة ، ولذا لم تواجه هذه البيئات مشكلة التعبير بالعربية عن الحضارة الحديثة والعلم الحديث ، فظلت أكثر من مائة عام بعد بداية النهضة الحديثة فى غنى عن وضع أى مصطلح جديد لشىء جديد وافد .

والقضية اللغوية أيضا لا تهم المدارس الأوربية والأمريكية التى انتشرت فى مصر وتونس والمغرب وزادت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر زيادة ملحوظة فقد كانت هذه المدارس تدرس كل المواد باللغة الأجنبيه وكانت اللغة العربية لا تدرس على الاطلاق ، أو تدرس فى أفضل الأحوال باعتبارها مادة دراسية ، وثمة فرق بعيد بين أن تكون العربية لغة التدريس وأن تكون مجرد مادة دراسية . لقد أنشأ الاوربيون من فرنسيين وايطاليين وروس كما أنشأ الأمريكيون هذه المدارس ، وكان الهدف التبشيرى واضحا فيها جميعا فكانت مدارس الفرنسيين والايطاليون تدعو إلى الكاثوليكية ومدارس الروس تدعو إلى الارثوذكسية ومدارس الأمريكان تدعو إلى الانجيلية . وأكثر هذه المدارس لم تكن تواجه قضية التعبير بالعربية عن العلم الحديث إلا عندما حاولت هذه المدارس فى لبنان القضاء على مكانة اللغة التركية — اللغة الرسمية فى الدولة العثمانية — بتشجيع التدريس باللغة العربية . وبغض النظر عن هذه الفترة المحدودة فى لبنان فان المدارس الاجنبية فيها وفى مصر وتونس والجزائر والمغرب لم تواجه قضية التعبير بالعربية عن الحضارة الحديثة والعلم الحديث .

ولقد كانت مصر وباقى أجزاء الوطن العربى تابعة للدولة العثمانية ، وكان لهذا الوضع السياسى أثره المباشر فى استمرار الازدواج فى لغة الادارة بين التركية والعربية وقتا طويلا ، كانت التركية اللغة الرسمية للدولة العثمانية ، ثم دخلت العربية بدرجة استقلال الحاكم أو الاقليم عن التبعية للباب العالى .

وتتضح قضية الازدواج بين التركية والعربية من تتبع التاريخ اللغوى للصحف الرسمية التى صدرت فى الأقاليم العربية فى الفترة السابقة على دخول الاستعمار الأوربى الأقاليم العربية. كانت صحيفة « الوقائع الرسمية » أول صحيفة تصدر فى الدولة العثمانية ، أصدرها عهد محمد على فى القاهرة سنة ١٨٢٨ ، فمهدت بذلك لظهور الصحف الرسمية فى باقى أنحاء الدولة العثمانية. فأقدم صحيفة تركية صدرت سنة ١٨٣١ بعنوان «تقويم وقائع» فى تركيا ، وأقدم صحيفة رسمية فى تونس ظهرت سنة ١٨٦٦ بعنوان « طرابلس الغرب » وأقدم صحيفة رسمية فى العراق ظهرت فى بغداد سنة ١٨٦٩ بعنوان « الزوراء » . كانت « الوقائع الرسمية » تكتب مادتها باللغة التركية ، ثم تترجم موضوعاتها بشكل ما إلى اللغة العربية . ولكن الوقائع الرسمية تحولت إلى صحيفة عربية بالأصالة عند تولى رفاعة الطهطاوى مسئولية تحريرها وظل القسم التركى إلى جانب القسم العربى سنوات طويلة بعد ذلك . وكان الازدواج اللغوى بين التركية والعربية فى « الرائد التونسى » و « طرابلس الغرب » و « الزوراء » ظاهرة موازية لتبعية هذه المناطق للدولة العثمانية . وظل الاهتمام بالقسم العربى من هذه الصحف مرتبطا بالمستوى الثقافى للمحررين ، ومبادراتهم الفردية ، ولذا يعد تحول الوقائع الرسمية فى عهد الطهطاوى إلى الاهتمام بنشر المقالات الثقافية والسياسية باللغة العربية بداية جديدة للصحافة . لقد أصبحت الوقائع الرسمية بهذا التحول اللغوى والموضوعى لا مجرد نشرة حكومية ، بل أداة عربية لتكوين الرأى العام وللتجديد اللغوى . وكان للوقائع الرسمية أثر بعيد فى إثراء اللغة العربية بكلمات جديدة تعبر عن النظم الحديثة والحضارة الحديثة ، وظل القسم التركى موجودا بها إلى دخول الانجليز مصر .

وتتضح قضية الازدواج اللغوى بين العربية والتركية من الاتجاه العام لترجمة الكتب الأوربية بصفة عامة والفرنسية بصفة خاصة ، فقد فرض محمد على على كل مبعوث عائد من الدراسة فى أوروبا أن يترجم كتابا

تخصصيا إلى التركية أو إلى العربية وكانت « مدرسة الألسن » منذ إنشائها ١٨٢٥ مركزا للترجمة إلى التركية وإلى العربية . وفى عهد محمد على تمت ترجمة ١١٤ كتابا الى اللغة العربية ، و ٦١ كتابا إلى اللغة التركية[١] . وتتناول الكتب المترجمة إلى العربية كل أفرع العلوم الطبية والطبيعية والرياضيات ولكن الكتب المترجمة إلى اللغة التركية كانت فى المقام الأول فى العلوم الحربية ثم فى التاريخ . وهكذا أحدث عهد محمد على فى مصر انتعاشا نسبيا للغة التركية فأخذت تظهر — لأول مرة — فى عدد من المطبوعات الدورية وغير الدورية ولكن العربية الفصحى قد دخلت فى عهده مجالات التعبير عن العلم الحديث والحضارة الحديثة .

كان اهتمام محمد على بالافادة من الخبرة الأوربية بصفة عامة والخبرة الفرنسية بصفة خاصة فى بناء الدولة الحديثة واضحا فى مجال التعليم . كانت صورة الحملة الفرنسية بجيشها وعلمائها ما تزال ماثلة فى الوجدان المصرى ، كما كانت محاولات التجديد فى الدولة العثمانية معروفة لمحمد على . لقد أراد محمد على تكوين جيش قوى حديث على نمط الجيوش الأوربية ، فاستعان بكل الخبرات المتاحة فى تكوين الجيش المصرى سنة ١٨١٥ .

أنشأ محمد على عددا من المدارس العليا فى إطار الجيش ، وأقدم هذه المدارس مكتب المهندسخانة سنة ١٨١٥ وتتابعت المدارس الهندسية والصناعية فى السنوات التالية لتكوين الاطارات الفنية للجيش (١٨٣١ مدرسة الكيمياء ، ١٨٣٤ مدرسة المعادن ، ١٨٣٧ مدرسة الفنون والصنائع) . وفى عهد محمد على أنشئت أيضا مجموعة مدارس متخصصة فى الطب والخدمات الطبية (١٨٢٧ مدرسة الطب البشرى ، ١٨٢٨ مدرسة الطب

---

(١) أنظر قائمة بهذه الكتب المترجمة إلى العربية وتلك المترجمة إلى التركية ، فى كتاب جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على (القاهرة ١٩٥١) — الملحق المطبوع بآخر الكتاب .

البيطرى ، ١٨٣٠ مدرسة الصيدلة ، ١٨٣٢ مدرسة الولادة[1] . وكانت القضية اللغوية فى هذه المدارس الحديثة قضية التدريس باللغة العربية . ولقد استعان محمد على بمجموعة من الأساتذة الفرنسيين وبقلة من غير الفرنسيين . ومن أشهر هؤلاء الاساتذةالفرنسيين كلوت بك أستاذالطب وبراون أستاذالكيمياء والفيزياء.

ولكن هؤلاء المدرسين — باستثناء براون — كانوا لا يعرفون اللغة العربية بالقدر الذى يمكنهم من التدريس أو التأليف بها . ولذا فقد كان التدريس يتم فى أغلب الأحوال عن طريق مترجم يترجم الدرس إلى اللغة العربية . وقد أفادت المدارس فى هذه الفترة المبكرة من عدد من العرب الذين ألقت بهم ظروف الحياة فى بيئة لغوية فرنسية ثم اشتغلوا مترجمين فى مصر . وقد اهتمت المدارس الحديثة فى عهد محمد على وكذلك مدرسة الألسن بقضية المصطلحات العلمية ، وبذلك تكونت لجان علمية لتعريب المصطلحات وكانت ثمار هذا التعاون بين المختصين ورجال الأزهر ظهور كتب عربية مترجمة فى كثير من العلوم ، منها كتاب « القول الصريح فى علم التشريح » (١٨٣٢) ، وهو أول كتاب فى التشريح ظهر باللغه العربية فى العصر الحديث . وما أن عاد المبعوثون الأطباء من فرنسا سنه ١٨٣٦ حتى نجدهم يلتقون أربع ساعات يوميا لترجمة الكتب التخصصية . وبالاضافة إلى حركة الترجمة المذكورة كان الأستاذ الفرنسى براون قد تعلم العربية وأجادها واستطاع أن يترجم كتابين أساسيين فى الكيمياء (٥٠٠ ص) والفيزياء إلى اللغة العربية ، وهو الأستاذ الفرنسى الوحيد الذى تمكن من الاسهام فى إثراء اللغة العربية بهذه المصطلحات معتمدا على التراث العلمى العربى ومستعينا بعدد من العرب[2] .

---

(١) المرجع السابق ١٦ — ٣٢ ، وأحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على (القاهرة ١٩٣٨) ، ص ٢٥١ — ٣٢٤ .

(٢) جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية ، ص ٦٦ — ٦٧ .

وما نكاد نصل إلى سنة ١٨٣٠ حتى كانت هذه المرحلة قد تمت بنجاح فالعلوم قد تعربت مصطلحاتها والمدرسون المتخصصون قد عادوا من البعثات فى أوربا . وبذلك تمت هذه المرحلة المبكرة من التعريب ، ولم تعد هناك حاجة إلى مترجمين، فقد أصبح كل المدرسين العرب يدرسون باللغة العربية على نحو مباشر . واعتمد الطلاب على كتب مطبوعة باللغة العربية فى العلوم المختلفة ، مع تعلمهم اللغة الفرنسية فى أغلب الأحوال وقدرا من التركية والانجليزية والفارسية فى بعض المدارس .

وعلى الرغم من أن هذه المرحلة نقلت اللغة العربية إلى مجالات علمية جديدة، فإن الحياة اللغوية ظلت تعانى من قضية انتشار الامية . فلم تكن قضية ديمقراطية الثقافة مطروحة فى هذه الفترة ، ولذا كانت مدارس التعليم العام محدودة العدد ، وكان الهدف الأساسى من إنشائها تكوين التلاميذ للالتحاق بالمدارس المتخصصة وكان التعليم العام فى مكانه ثانوية تابعة .

فاذا كانت هذه المرحلة قد نجحت فى تذليل مشكلة فى مكانة ثانوية تابعة . فاذا كانت هذه المرحلة قد نجحت فى تذليل مشكلة المصطلحات العلمية فانها لم تؤد إلى رفع المستوى الثقافى العام والمستوى اللغوى العام إلا بدرجة محدودة .

وأتاح عهد إسماعيل فى مصر بداية جديدة للتعليم الحديث وللعناية باللغة العربية[1] . لقد أعيدت المدارس العليا التى أسسها محمد على وأغلقها عباس ، وأصبحت « مدرسة الادارة والالسن » مركزا للدراسات النظرية الحديثة فى اللغات والقانون والاقتصاد ، وأنشئت فى عهد إسماعيل مدارس عليا كثيرة (المهندسخانة ١٨٦٦ ، الزراعة ١٨٦٧ ، الفنون والصنائع ١٨٦٨ ، المساحة

---

(١) انظر : عبد الرحمن الرافعى : عصر إسماعيل (القاهرة ١٩٤٨) ١٩٧/١ — ٢٤٥ .

١٨٦٨ ، ومدرسة التلغراف ١٨٦٨ ، مدرسة اللسان المصرى القديم ١٨٦٩ ، ومدرسة دار العلوم ١٨٧٢) .

وكان إنشاء دار العلوم محاولة لتكوين مدرس اللغة العربية والدين الاسلامى على نحو حديث نسبيا يخالف ما عرفه الأزهر آنذاك ، فدخلت مجموعة من العلوم الحديثة برامج التدريس فى دار العلوم، وكانت بهذا أول معهد عال لتخريج مدرسى اللغة العربية فى العالم العربى الحديث[1] .

وحقق عهد اسماعيل تأسيس مدارس كثيرة مدنية وكانت المدارس من قبل عسكرية تابعة للجيش ، ولكن المدارس العليا فى عهد إسماعيل اتخذت لأول مرة فى التاريخ العربى الحديث الطابع المدنى . وعندما استقل التعليم المدنى عن التعليم العسكرى(١٨٧٦) انطلق التعليم العام ليحقق مزيدا من الانتشار فأسست مدارس إبتدائية وثانوية كثيرة فى أنحاء مختلفة من مصر .

وفى نفس الفترة ازدهرت الطباعة والصحافة ، فأسست مطابع كثيرة فى مصر، واستعادت الحكومة (١٨٦٥) مطبعة بولاق التى كانت قد أهديت لأحد المقربين من الحاكم قبيل عهد إسماعيل . لقد ظهرت حركة نشر قوية فى هذه الفترة ولم تعد مطبعة بولاق وحدها كما كانت فى عهد محمد على ، فنشرت كتب عربية مؤلفة ومترجمة ومحققة .

وأتاح ازدهار الصحافة فى هذه الفترة نهضة ثقافية جديدة ، فصدرت (١٨٦٥) مجلة « اليعسوب » أول مجلة طبية باللغة العربية ، ثم ظهرت (١٨٦٧) صحيفة « وادى النيل » أقدم صحيفة سياسية ، ثم صدرت (١٨٧٠) مجلة « روضة

---

(١) المرجع السابق ١٩٨/١ ، محمد خلف الله أحمد : معالم التطور الحديث فى اللغة العربية وأدابها (القاهرة ١٩٦١)ص ١٢٣ — ١٢٦ .

المدارس » أقدم مجلة ثقافية عربية ، ثم ظهرت (١٨٧٥) جريدة « الأهرام » . وتتابعت الصحف والمجلات بعد ذلك على نحو جعل اللغة العربية الفصيحة تقترب من الجماهير العريضة لتقدم لها صورة عن الحياة الحديثة والفكر الحديث والعلم الحديث . وبذلك أتاحت الصحف انتشارا لكثير من المصطلحات والتعبيرات الجديدة على نطاق واسع فأصبحت لغة الصحافة من أهم ملامح الحياة اللغوية .

وشبيه بهذه التجربة المصرية العريضة أمر المحاولة التونسية فى عهد أحمد باى (١٨٣٧ — ١٨٥٥) ثم فى وزارة خير الدين التونسى (١٨٧٣ — ١٨٧٧)[1]. فقد تزعم المشير أحمد باى أول محاولة إصلاحية فى المغرب العربى . كانت المحاولة المصرية فى عهد محمد على ماثلة بكل أبعادها أمام الحاكم التونسى ، فأنشأ جيشا نظاميا كبيرا وأسطولا حديثا مستعينا أيضا بالضباط والفنيين الفرنسيين والايطاليين ، ثم أسس أحمد باى (١٨٤٠) مدرسة حربية (مدرسة باردو) لم تقتصر مواد التدريس فيها على العلوم العسكرية بل كانت تعنى أيضا بالهندسة والمساحة والحساب والتاريخ والجغرافيا واللغة العربية والتربية الدينية واللغتين الفرنسية والايطالية . وبذلك كانت مدرسة باردو أول مؤسسة تعليمية ضم برنامجها عددا من العلوم الحديثة فى المغرب . وكان الأساتذة الفرنسيون والايطاليون لا يستطيعون التدريس باللغة العربية ، ولذا كان التدريس يتم — أيضا — بطريق الترجمة . ولكن التجربة التونسية الأولى لم تعمر طويلا ، فقد ضعفت المدرسة بعد وفاة أحمد باى (١٨٥٥) وأغلقت رسمياً (١٨٦٩) .

وكانت وزارة خير الدين التونسى (١٨٧٣ — ١٨٧٧) بداية جديدة للبناء الجديد فى تونس ، فقد اهتم خير الدين بالتعليم الحديث لتكوين الاطارات الوظيفية

---

(١) انظر مقدمة المنصف الشنوفى لكتاب أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك من تأليف خير الدين التونسى (الدار التونسية للنشر ١٩٧٢) .

فى تونس فأسس المدرسة الصادقية (١٨٧٥) أول مؤسسة ثقافية مدنية حديثة فى تونس . وكان خير الدين يهدف من إنشاء المدرسة الصادقية على غرار المدارس الثانوية الأوروبية التوفيق بين العلوم الاسلامية واللغة العربية من جانب والعلوم الرياضية والطبيعية واللغات الفرنسية والايطالية والتركية من الجانب الآخر . وكان خير الدين يفكر فى إيفاد الممتازين من خريجى هذه المدرسة الدراسية العالية فى أوربا ، ولكنه لم يكد يبدأ خطته الطموحة حتى حالت التقلبات السياسية دون ذلك وهكذا عرفت تونس قبل الاستعمار الفرنسى (١٨٨٢) محاولات للنهضة الثقافية ، وعرفت معها محاولات للتعبير عن الحضارة الحديثة والعلم الحديث باللغة العربية ويعد كتاب « أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك » لخير الدين التونسى صورة واضحة لمحاولة التعبير بالعربية فى مجالات الحياة الحديثة .

ثانيا : الصراع من أجل العربية الفصحى :

اتخذ الصراع من أجل العربية الفصحى فى البلاد العربية المختلفة منذ الاحتلال الانجليزى لمصر (١٨٨١) والاحتلال الفرنسى لتونس (١٨٨٢) ، وكانت الجزائر قد احتلت من قبل (١٨٣٠) ، صورتين أساسيتين : الصراع من أجل اللغة العربية فى المناطق الخاضعة للحكم العثمانى المباشر من جانب ، والصراع من أجل اللغة العربية الفصحى فى البلاد الخاضعة للنفوذ الاستعمارى الاوربى فى مواجهة دعوات العامية والتجزيئية .

كانت البلاد العربية من الناحية الرسمية أقاليم تابعة للدولة العثمانية فى هذه الفترة، ولكن بعض البلاد مثل الشام والعراق كانت تخضع للحكم العثمانى المباشر بينما كانت مصر قد حققت درجة من الاستقلال فى عهد محمد على وإسماعيل ، ثم فصلتها السيطرة البريطانية منذ (١٨٨١) عن الدولة العثمانية من الناحية الفعلية . لقد حاولت الدولة العثمانية فى هذه الفترة أن تحتفظ بالسيطرة المطلقة على مناطق الشام

والعراق ، ولكن العربية كانت أقوى من العثمانيين ، فقد حاولت الدولة العثمانية في هذه الفترة أن تجعل اللغة التركية اللغة الرسمية الوحيدة ولغة التعليم الوحيدة في كل الأقاليم الخاضعة لها ، ولذا كان الصراع من أجل العربية محاولة ناجحة لمواجهة سياسة تتريك العرب . ويتضح هذا الصراع من دراسة أنواع المدارس التي عرفتها الشام والعراق في هذه الفترة من ناحية مدى اهتمامها باللغة العربية وبالتدريس بالعربية ، ويمكن تصنيف هذه المدارس الدينية ، والمدارس الأجنبية ، والمدارس الحكومية ، والمدارس الأهلية (١) .

لقد ظلت المدارس الدينية في حلب وحمص وحماة وطرابلس ودمشق والقدس تدرس العلوم الفقهية وقدرا من النحو والتفسير على نحو بسيط ، وضعف المستوى العلمي لهذه المدارس بمضي القرون ولكنها احتفظت باللغة العربية . كانت معرفة الدارسين في هذه المدارس باللغة العربية معرفة سلبية لا إيجابية في حين كانت دراسة التراث العربي مقصورة على الفقه وعلوم الآلة .

وكانت المدارس الأجنبية تمثل صورة من صور المنافسة بين حركات التبشير المسيحية ، لقد اهتم الانجيليون الأمريكان منذ دخولهم لبنان (١٨٢٠) بانشاء المدارس الداعية إلى التحول إلى طائفتهم ، وحتى سنة ١٨٦٠ كانوا قد أنشأوا حوالي ثلاثين مدرسة ومعهدا لتأهيل المدرسين . وكان اليسوعيون الكاثوليك منذ ١٨٣١ قد أنشأوا عددا من المدارس قبل ١٨٦٠ .

وقد زادت مدارس المبشرين بعد حوادث ١٨٦٠ ، وتنوعت المدارس بتعدد الدول والطوائف فكانت في بيروت ودمشق والقدس مدارس انجليزية وأمريكية

---

(١) انظر : سعيد الأفغاني : حاضر اللغة العربية في الشام ، القاهرة ١٩٦١ — ١٩٦٢ .

وروسية وفرنسية وألمانية وإيطالية . كانت هذه المدارس تهدف إلى أضعاف التكامل الداخلى فى الدولة العثمانية ، ولذا فكانت لا تدرس اللغة التركية وجعلت اللغة العربية لغةالتدريس . وهكذا كانت المدارس الروسية الأرثوذكية والانجليزية الأمريكية تهتم باللغة العربية إلى جانب اللغة الأجنبية .

وقد نشأ التعليم العالى فى لبنان فىإطار التبشير أيضا ، فقد أسس الانجيليون (١٨٦٦) الكلية السورية الانجيلية (الجامعة الأمريكية) ثم أنشأ الكاثوليك (١٨٧٥) جامعة القديس يوسف . كان التدريس فى الكلية السورية الانجيلية يتناول — أول الأمر — الآداب والعلوم والطب والصيدلة وكانت كل هذه التخصصات تدرس باللغة العربية . ولكن التدريس فى جامعة القديس يوسف كان بالفرنسية واللاتينية امتدادا للمعاهد اللاهوتية والفلسفية الكاثوليكية فى فرنسا ، وكانت دروس اللغة العربية وحدها باللغة العربية . وقد كان الاهتمام باللغة العربية موضع منافسة بين دوائر التبشير وأدت هذه المنافسة إلى ظهور الحركة اللغوية العربية بين المسيحيين فى لبنان ، وأهم أعلام هذه الحركة اللغوية : إبراهيم اليازجى مؤلف « لغه الجرائد » ، وبطرس البستانى مؤلف « محيط المحيط » (١٨٦٩)ومن حذا حذوهما بعد ذلك .

لقد ظلت الكلية السورية الانجيلية تدرس العلوم كلها بالعربية ، ولكنهاتحولت مع ضعف العثمانيين وزيادة النفوذ الأوربى إلى هجر التدريس بالعربية ، وما أن احتل البريطانيون مصر (١٨٨١) حتى كانت الكلية السورية الانجيلية فى بيروت قد حولت التدريس من العربية إلى الانجليزية ، وأصبحت اللغة العربية مجرد مادة دراسية وكانت من قبل لغة التدريس .

ولكن المدارس الحكومية — أى مدارس الحكومة العثمانية — كانت تدرس كل موادها باللغة التركية وفق برامج الدراسة فى مدارس تركيا ، فكانت التركية

لغة التدريس ، ولذا كان أكثر معلميها من الأتراك ، أما المدرسون العرب فكانوا قلة يعلمون موادهم باللغة التركية أيضا . ولكن اللغة العربية كانت فى هذه المدارس العثمانية مجرد مادة دراسية يدرسها الطلاب فى الشام والعراق بنفس المستوى المقرر على الأتراك ، ولذا لم يكن غريبا أن يقوم بتدريس اللغة العربية مدرس غير عربى. ولذا كان مستوى التدريس فى المدارس التركية القليلة فى منطقة الشام لا يمكن الطلاب من إجادة العربية الفصحى ، وكان يجعلهم على ارتباط وثيق بالكتب التركية والدوله العثمانية ويجعل وعيهم العربى مشوبا خافتا ، ولذا كان أثرهم فى التأليف بالعربية الفصحى ضعيفا .

وكانت المدارس الأهلية الخاصة منطلق التعليم العربى فى منطقة الشام والعراق، وقد مهدت هذه المدارس العربية لأن تصبح اللغة العربية لغة التعليم ، فى كل المستويات فيما بعد ، لقد أنشأ المواطنون العرب مدارس عربية ، منها فى دمشق (المدرسة العثمانية) وفى بيروت (جمعية المقاصد الاسلامية) ،و (الكلية الأزهرية) بهدف إتاحة الفرص أمام العرب المسلمين للارتقاء الثقافى والعلمى . كانت المدارس الأجنبية غير إسلامية ومدارس الحكومة العثمانيه غير عربية ، ولذا أنشأ المواطنون العرب هذه المدارس عربية إسلامية .

وقد أصبح هذا النمط الجديد أمل الحركات العربية فى السنوات الأولى من القرن العشرين. لقد ظهرت الجمعيات العربية الاصلاحية فى الدولة العثمانية بهدف تحقيق الوجود العربى والنهوض به ، ولذا كان المثقفون والطلاب العرب فى استانبول بصفة خاصة مؤسسى هذه الجمعيات. كان لهذه الجمعيات اهتمام كبير بقضايا اللغة ،ولذا افتتحوا فصولا مسائية لتعليم العربية الفصحى وكانوا يلتقون فى ندوات لمطالعه المجلات العربيه والصحف العربية الصادرة فى مصر المقتبس والمقتطف واللواء والمؤيد والأهرام . ويقدمون فى حاضرة الدوله العثمانية عروضا مسرحية

باللغة العربية ، وهدفهم من النشاط الثقافى باللغة العربية الفصحى الدعوة إلى جعل العربية لغة التعليم والادارة والجيش فى الأقاليم العربية من الدولة العثمانية . وأهم هذه الجمعيات العربية : جمعية النهضة العربية (١٩٠٧) والمنتدى الأدبى (١٩٠٩) وجمعية العربية الفتاة (١٩١١) وجمعية العهد (١٩١٣) ، وقد أعلنت « الجمعية العمومية الاصلاحية » (١٩١٣) فى بيروت أن من أهدافها جعل اللغة العربية لغة رسمية فى البلاد العربية ، وهو هدف كانت تسعى اليه الجمعيات العربية الأخرى فى استانبول ودمشق وبغداد. وكانت قمة نشاط هذه الجمعيات عقد المؤتمر العربى الأول (١٩١٣/٦/١٨) فى باريس . وأهم مقررات هذا المؤتمر : اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة فى مجلس النواب العثمانى ، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية فى الولايات العربية (المادة الخامسة) . وقد حاول العثمانيون قبيل نشوب الحرب الأولى الاتفاق مع العرب حول تنفيذ هذه التوصيات .وبذلك أنشأت الدولة العثمانية (١٩١٣) عدة ثانويات عربية ، ولكن العثمانيين أغلقوا هذه المدارس العربية مع نشوب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤) .

وبدأت كل هذه المحاولات العربية تتحول إلى واقع حقيقى مع قيام الدولة العربية فى دمشق (١٩١٨/١٠/٥) . وبذلك كان من الطبيعى أن تكون العربية اللغة الرسمية فى الدولة وأن تكون اللغة العربية أيضا لغة التعليم ، ولكن تحويل إدارات الحكومة ، التى تكون موظفوها فى مدارس الدولة العثمانية ودرجوا على اللغة التركية فى الادارة — لم يكن أمرا سهلا . وواجهت المدارس المعربة صعوبة فى تعريب الكتب وتعريب المدرسين خريجى مدارس الدولة العثمانية .ولذا أسست الدولة العربية شعبة للترجمة والتأليف (١٩١٨/١١/٢٨) بهدف تعريب المصطلحات الادارية ونشر العربية بين الموظفين ، ثم ضمت هذه الشعبة (١٩١٩/٢/١٢) إلى ديوان المعارف لتقوم أيضا بمهمة تعريب التعليم وبعد ذلك تحولت هذه الشعبة إلى

هيئة علمية أعلنت (١٩١٩/٦/٨) باسم « المجمع العلمى » . وهكذا نشأ المجمع العامى فى دمشق تلبية لحاجات الدولة فى تعريب لغة الادارة وتعريب التعليم، فقام المجمع بوضع المصطلحات التى طلبتها منه الادارات الحكومية، وراجع الكتب الدراسية المترجمة عن الكتب التركية ، وبذلك أصبحت العربية لغة الادارة ولغة التعليم العام ولم يبق التعليم العالى بعيدا عن تيار التعريب ، كان العثمانيون قد أنشأوا فى دمشق معهدا للحقوق ومعهدا للطب قبل الحرب الأولى ، وكانت كل مواد التعليم الطبى تدرس بالتركية وكذلك العلوم القانونية عدا الشريعة الاسلامية فقد كانت تدرس بالعربية . وقد بدأ تعريب لغة جميع المواد مع قيام الدولة العربية (١٩١٩) فاعتمدت حركة التعريب فى مواد الطب والقانون عل الجهود المصرية فى عهد محمد على وعلى الجهود البيروتية فى الكلية السورية الانجيلية أثناء تدريسها الطب بالعربية وهكذا تم التحول اللغوى فى لغة الادارة والتعليم العام والعالى وهو تحول صمد أمام عهود الاستعمار بعد ذلك .

واتخذ الصراع من أجل اللغة العربية فى البلاد العربية التى خضعت فى وقت مبكر للاستعمار الأوربى شكل المقاومة ضد الضم والتجزيئية. كان الاستعمار الفرنسى فى الجزائر يهدف إلى القضاء على عروبة الجزائر ، فكان التعليم الحديث منذ البداية (١٨٣٠) تعليما للمستوطنيين الفرنسيين وحدهم ، ولذا ظل التعليم فى الجزائر حتى الاستقلال يتوسل باللغة الفرنسية فى تدريس كل المواد الدراسية . وقد نجح الفرنسيون على مدى عدة أجيال فى جعل الجزائريين يتعاملون فى الحياة العامة باللغة الفرنسية أيضا، وكأن الرقى والحضارة لا يكونان إلا بها . ويرجع نجاح الفرنسيين هنا إلى طول مدة الاستعمار الفرنسى فقد امتدت أكثر من ستة أجيال ، وكثرة عدد المستوطنين الفرنسيين فى كل مرافق البلاد ، كما يرجع أيضا إلى أن الجزائر لم تكن قد عرفت نهضة عربية قبيل عهد الاحتلال على نحو ما عرفت تونس ، ولم يكن بها معهد على

من طراز الزيتونة فى تونس — أو القرويين فى المغرب . لقد جعل الفرنسيون فى الجزائر العربية الفصحى بعيدة عن التداول ، فاللهجات العربية المحلية تسود فى التعامل اليومى المحدود جنبا إلى جنب مع اللغة الفرنسية فى المناطق العربية ، واللهجات البربرية تسود مع اللغة الفرنسية فى المناطق البربرية، وبذلك أصبحت الفرنسية اللغة المشتركة وكانت من قبل العربية. وهكذا لم تكن العربية لغة الادارة ولا لغه التعامل على الصعيد الوطنى . ويتشابه ما حدث فى الجزائر بعد ١٨٣٠ بما حدث فى تونس بعد ١٨٨١ ، والمغرب بعد ١٩١٢ ،مع خلاف فى الدرجة فقط ، فقد كانت السياسة اللغوية الفرنسية واحدة ، وقد اختلفت النتيجة باختلاف عوامل المقاومة اللغوية والحضارية .

وكانت السياسة اللغوية البريطانية فى مصر بعد الاحتلال(١٨٨١) تهدف إلى التجزيئية[1] ، بينما كانت السياسة اللغوية الفرنسية فى المغرب بهدف الضم .واتخذت السياسة التجزيئة البريطانية لمصر خطة الدعوة إلى هجـــر الكتابة بالفصحى ، والدعوة إلى العامية ، وكانت بداية هذه الدعوة (١٨٩٢ — ١٨٩٣) على يد مهندس الرى البريطانى وليام ولكوكس فى محاضراته المشهورة التى نشرت بمجلة الأزهر فبراير(١٨٩٣) ، وظلت هذه الدعوة تتجدد من حين لآخر ، أشهرها دعوة القاضى ويلمور أبناء مصر للكتابة العامية وإعلانها لغـة رسمية فى مصر مع كتابتها بالحروف اللاتينية (١٩٠١) ، وتجددت مرة أخرى بقلم سلامة موسى (١٩٢٦) بحجة أن الفصحى صعبة وغير قادرة على التعبير عن الحضارة الحديثة وأن الفصحى تربط أبناء مصر بالشرق وكانت بعض الدوريات المهادنة للاستعمار البريطانى تدافع عن الدعوة ، فقد وقفت مجلة « المقتطف » مثلا مع دعوة ويلمور

---

(١) انظر المقال المنشور لمؤلف هذا الكتاب : بعنوان :اتجاهات المستشرقين فى دراسة الحياة اللغوية فى العصر الحديث ، مجلة : المجلة — القاهرة — يونيه ١٩٦٦ .

(١٩٠١) . بينما وقفت الصحف العربية ذات اللون الاسلامى والعربى تدافع عن الفصحى ، وقد تولت جريدة « المؤيد » الرد على دعـوة ويلكوكس (١٨٩٣) ودعوة ويلمور (١٩٠١) ، وكذلك كان موقف مجلة « الهلال » لجرجى زيدان، ومجلة « الجامعة » لفرح انطون . كان الاستعمار الانجليزى يخطط لغرض التجزيئية على الاستخدام اللغوى فى المنطقة العربية بالدعوة إلى العاميات ، ويخطط لغرض اللغة الانجليزية فى مجالات التعليم . لقد فرضت السلطة الاستعمارية (١٨٨٩) اللغة الانجليزية فى المدارس المصرية لتصبح لا مجرد مادة دراسية ، بل لغة التعليم فى كل المواد ، وبذلك أصبحت العربية مجرد مادة دراسية . وظل الصراع من أجل تعريب التعليم قائما إلى أن أذعن الانجليز لتعريب لغة التدريس (١٩٠٧) ، وقد ظهرت فى هذه الفترة مقالات كثيرة فى جريدة « المـؤيد » بصفة خاصة تدعـو إلى التعليم باللغـة العربية وجعل الانجليزية مـادة دراسية ، كما نشأت حركة لتعريب المصطلحات الحديثة فى العلوم والنظم والحضارة ، ومن أقطابها محمد الخضرى وأحمد الاسكندرى وأحمد فتحى زغلول وحنفى ناصف . ومهـدت هـذه الحركة لنشوء « الجامعة الأهلية » (١٩٠٨) التى تحولت بعد ذلك (١٩٢٥) إلى « الجامعة المصرية » التى اهتمت بعض كلياتها بالتدريس بالعربية . وعندما تم إنشاء المجمع اللغوى بالقاهرة (١٩٣٤) كانت اللغة العربية تحاول أن تدخل مجالات جديدة ، فتعربت لغة المحاكم المختلطة (تأسست ١٨٧٩) إلى جانب استمرار عملها بالانجليزية والفرنسية والايطالية (١٩٣٤) ، ثم عربت لغة الشركات والهيئات العـامة فى تحرير العقود والمراسلات (١٩٤١) ، وبذلك دخلت العربية مجالات السياسة والتعليم والقضاء والحيـاة الاقتصادية ، وفشلت محـاولات القضاء على الفصحى فى هذه المجالات .

الفصل السادس

المصطلحات وألفاظ الحضارة الحديثة

كان اللقاء الحضارى بين اللغة العربية والحضارة الأوربية الحديثة منذ بداية النهضة العربية الحديثة نقطة تحول حاسمة طرحت قضية التعبير عن العالم الحديث والحياة الحديثة والمؤسسات العلمية والثقافية باللغة العربية . وهناك عدة وسائل أفادت منها العربية لتكوين مصطلحات العلوم وألفاظ الحضارة الحديثة ، وأهم هذه الوسائل : الاقتراض ، التغير الدلالى ، الاشتقاق ، النحت ، التركيب .

أولا : الاقتراض :

المقصود بالاقتراض دخول ألفاظ غير عربية إلى اللغة العربية ، ويعبر بعض اللغويين عنه بكلمة التعريب ، وهى كلمة نستخدمها هنا استخداما عاما ليشمل الطرق المختلفة للتعبير عن مفاهيم ومصطلحات غير عربية باللغة العربية[1] ، وبهذا فالتعريب — فى كتابنا هذا — لا يعنى الاقتراض[2] فحسب بل يشمل أيضا الوسائل الأخرى للتعبير بالعربية للمفاهيم والمصطلحات الحديثة .

---

(١) بهذا المعنى العام لكلمة التعريب توجد مؤسسة علمية تابعة للمنظمة العربية للتربية الثقافية والعلوم ، عنوانها مكتب تنسيق التعريب — الرباط . ويعنى المكتب لا بالألفاظ الدخيلة بل بقضية التعريب فى أبعادها المختلفة .

(٢) الاقتراض = الاقتراض المعجمى Lexical Borrowing

والاقتراض المعجمى ليس نقلا مباشرا لكلمة من لغة إلى أخرى فالوحدات الصوتية تختلف من لغة لأخرى وهناك أصوات توجد فى لغات ولا توجد فى أخرى، كما يختلف النظام المقطعى ونظام بناء الكلمة على نحو يجعل انتقال الكلمة من لغة إلى أخرى مؤديا إلى حدوث تغيرات فى بنيتها فى اللغة التى دخلتها الكلمة. واقتراض ألفاظ أوربية فى العربية يعنى أيضا محاولة تدوين هذه الكلمات بالحروف العربية، وهذا يعنى بالضرورة محاولة أن توضع الكلمة فى قالب عربى من ناحية الكتابة أيضا، ولذا يطرح الاقترض اللغوى قضية تدوين الأصوات الغريبة عن اللغة العربية.

ويمكن إيضاح طبيعة هذه القضايا الخاصة بالاقتراض فى العربية والاتجاهات التى اتخذت فى حلها فى بداية النهضة العربية الحديثة بالنظر فى مجموعة من الألفاظ الاوربية الحديثة فى كتاب « تخليص الابريز » للطهطاوى[1]، ولاختيار هذا الكتاب سبب أساسى أنه أول مؤلف باللغة العربية يحاول أن يقدم فى العصر الحديث صورة حيه للحضارة الأوربية فى عصرها ولذا فهو أول كتاب يعبر عن المواجهه الحضارية مع أوربا فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر.

تتناول الالفاظ الاوربية التى دخلت مع رفاعة الطهطاوى فى إطار الحديث عن العالم الجديد عدة مجالات. لقد حاول الطهطاوى أن ينقل إلى القارىء العربى ملامح العالم الجديد[2]. فاذا به يحدثنا لأول مرة فى تاريخ اللغة العربية عن القارة الجديدة التى لم يعرفها الرحالة العرب من قبل. ذكرها الطهطاوى تارة باسم (أمريقة) وأخرى باسم (أمريكه)، وهنا نلاحظ بداية مشكلة فى التدوين،

---

(١) أنظر النص الكامل لهذا الكتاب مع تعليقات عليه : أصول الفكر العربى الحديث، لمحمود فهمى حجازى ـ القاهرة ١٩٧٥.

(٢) تخليص الابريز ص

فالصوت الاوربى (C=K) نقل إلى الخط العربى مرة بالقاف وأخرى بالكاف.
والوقع أن العرف العربى القديم فى العصر العباسى كان يجعل القاف العربية تعبر عن هذا الصوت فى الالفاظ الدخيلة من اليونانية [1] ، ولنذكر مثلا حديثهم عن كتاب بوطيقا peotica لارسطو وكذلك كلمة اقليم المأخوذة عن Klima اليونانية. ولكن الطهطاوى قدم لنا ذلك الصوت الاوربى مكتوبا تارة بالقاف كما فعل القدماء وأخرى بالكاف كما فعل المحدثون بعده .

ذكر الطهطاوى أيضا أن الحدود الشرقية لهذه القارة « البحر المحيط الأكبر المسمى أقيانوس » وكأنه أراد بالكلمة الاخيرة أن يعبر بالخط العربى عن الكلمة اللاتينية (oceanus) قبل أن تستقر ترجمتها العربية بكلمة : محيط. وهنا نجد نفس الظاهرة فى تدوين صوت (C) بالقاف العربية .

وإذا كنا نعرف اليوم الولايات المتحدة الامريكية أكبر دولة فى القارة الأمريكية ، فان الطهطاوى منذ أكثر من مائة عام وجد صعوبة فى التعبير عن تلك الدولة الفتية المسماة باللغة الفرنسية Etats Unis فنقل الكلمة الفرنسيه المركبة : (بلاد الايتازونيا ، وهى الاقاليم المجتمعة). وهكذا كان التعريب مرحلة مهدت للترجمة بعد ذلك . وعندما ذكر الطهطاوى مدينة (نوبرق — فى بلاد الايتازونيا ومدينة وسهنغتون) نجد قضية الكتابة تطرح من جديد ، ففى اسم المدينة الأولى نجد القاف فى التدوين العربى ، أما فى اسم المدينة الثانية نجد الطهطاوى ينقل الكلمة الأوربية فى شكلها المكتوب لا فى شكلها المنطوق .

وهذا يتضح من عدم ملاحظته أن (sh) تعبر عن شين لا عن سين وهاء .
وقد استقر العرف فى نقل الالفاظ الأجنبية بالاعتماد على نطقها لا على كتابتها فى لغتها ، ويبدو أن هذه القاعدة لم تكن قد اتضحت بعد فى هذه الفترة المبكرة .

---

(١) ابن النديم ، الفهرست .

ذكر الطهطاوى عددا من المناطق والدول فى أمريكا الجنوبية ، منها : بلاد بولويه والمقصود Bolivia . وهنا نلاحظ تدوين الطهطاوى لصوت (V) فى اللغات الأوربية بحرف الواو العربية ، ويعكس هذا الاستخدام عرفا كان عند الترك، فقد كانوا يعبرون عن صوت (V) فى التركية بحرف (و) ، وهكذا وجد الطهطاوى حرف الواو وعبر به عن صوت (V) .

وفوق هذا فقد وجد الطهطاوى نفسه مواجها بالعالم القديم فى أبعاده الحضاريه الجديدة فى منطقة واسعة ، فأخذ يكتب عن مناطق (البلغار) ، و (السرب) وعن (بلاد الانكليز) و (بلاد دانيمرق) و (بلاد أسوج)،و (بلادالسويسه) و (بلاد الموسقو) ، و (بلاد البرتوغال) وغيرها . وهنا نجد عدة قضايا فى تدوين هذه الاسماء الاجنبية ، فقد عبر عن صوت(g) فى اللغات الاوربية بحرف (الغين)العربية ، وظل هذا التدوين قاعدة مرعية فترة من الزمن ما تزال آثارها إلى اليوم فى أسماء أوربية عربت فى فترة مبكرة ، منها : بلغار ، يوغسلاف ، برتوغال أو برتغال . أما كتابته لكلمة السويد على هذا النحو (أسوج)فيعكس استخدام حرف الواو للتعبير عن صوت (v) فى الاسم المحلى لهذه الدولة ، وكادت هذه التسمية تنحسر عن الاستخدام الحديث (عدا فى لبنان) ، وأصبحنا نقول السويد نقلا عن التسمية الفرنسية الانجليزية لهذه الدوله . أما (بلاد السويسة) عند الطهطاوى فتقابل فى الفرنسية La Suisse ، وقد اختفت هذه الصورة العربية فى التدوين والنطق ، وأصبحنا نقول(سويسرا). وأخيرا فهناك تسميات نعرفها اليوم ، وقد نشأت فى هذه الفترة تعريبا أو ترجمة ، فقد ذكر الطهطاوى (مدينة لوندره وهى كرسى الانجليز) معتمدا على التسمية الفرنسية لمدينة لندن وهى Londres وكادت هذه التسمية العربية (لوندره) أو (لندره) تختفى لتحل محلها (لندن) . أما البحر المتوسط فقد عبر عنه الطهطاوى بقوله « بحر سفيد أو البحر الابيض لمقابلته ببحر بنطش أو البحر الاسود » . وهكذا ذكر التسمية المتداولة

عند الترك ، وترجمها أيضـا ، وقد اختفت التسمية التركية واستقرت الترجمة « البحر الأبيض » .

٢ — وصف الطهطاوى لأول مرة باللغة العربية الحياة الفرنسية فى أبعادها الحديثة ، ودخلت مع هذا الوصف ألفاظ فرنسية كثيرة ، لعل بعضها أقدم فى الاستخدام العربى من الطهطاوى ، مثل كلمة : الفرنسيس Les Francais والـكرنتينه Quarantine ، أى الحجر الصحى . فـكلمة الفرنسيس عرفت فى العربية عندما عرف المصريون وكتب الجبرتى عن الحملة الفرنسية[1] . وكلمة الـكرنتينه أثارت اهتمام المغاربة حتى ألف أحدهم كتابا يوضح فيه إباحة الاسلام لنظام الحجر الصحى ، وكان الجبرتى كذلك قد عرف الـكلمة .

لقد عرف الطهطاوى الفرنسيين على ملة (القاثوليقية) أو (الدين القاثوليق) — هـكذا بالقاف وكان يتحدث عن أعلامهم بألقابهم (الجنرال كليبر ، مسيو جومار البارون دساس) وعرف اهتمامهم (باللغة اللاطينية) أو (اللسان اللاطينى) ، فقدم للقارىء العربى ألفاظا جديدة فى عصره . وتحدث الطهطاوى عن عدد جديد هو (المليون) ولـكنه اضطر لشرحه بأنه يعنى (ألف ألف) . وكان وصفه لما وجده فى باريس من (البلوار Boulevard = شارع تصطف الأشجار على جانبيه) جديدا فى الوصف والـكلمة .

وكان اهتمام الطهطاوى بما وجده فى باريس من صحافة كبيرا ، فنراه تارة يحدثنا عن (الجرنالات) جمع (جرنال ويجمع فى اللغة الفرنساوية على جرنو) Journal, Journaux ونراه كذلك يذكر (كازيطه) Gazette والجمع (كازيطات) ، ويفصل الشرح تعريفا للقارىء العربى بطبيعة الصحف والمجلات ووظائفها فى الحياة

---

(١) تخليص ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ٣٣٢ ، ومنها اشتق الفعل كرتن يكرتن

السياسيةوالاجتماعية والعلية والتجارية ، وكل هذا جديد فى المضمون والتسمية[1].

وأدى تعريف الطهطاوى بالحياة السياسية إلى أن يذكر الميثاق الدستورى الفرنسى ، وسماه (الشرطة) نقلا عن La Charte ، وشرح الكلمة بأن الشرطة هى « الكتاب المذكور فيه هذا القانون ، ومعناها فى اللاتينية ورقة ، ثم تسومح فيها ، فأطلقت على السجل المكتوب فيه الأحكام المقيدة»[2] . وقد كانت فكرة الدستور المنظم للعلاقة بين السلطات بعيدة آنذاك عن الحياة والفكر العربى .

وشغل الطهطاوى كذلك بالتعريف بالحياة الفنية الفرنسية ، وقدم مع هذا التعريف كلمات جديدة فهو يتحدث عن(التياتر Theatre)والجمع (تياترات) ، يذكر (السبكتاكل) Spectacle والجمع (سبكتاكلات)والكلمة الأولى تترجم الآن : مسرح ، والثانية عرض سينمائى أو مشهد غنائى أومنظر . ولكن الطهطاوى ووجه بقضية التعريف بهذا الفن ، فشرح المقصود « لا أعرف إسما عربيا يليق بمعنى السبكتاكل أو التياتر غير أن لفظ سبكتاكل معناه منظر أو منتزه أو نحو ذلك ، ولفظ تياتر معناه الأصلى كذلك ، ثم سمى بها اللعب ومحله ، ويقرب أن يكون نظيرها أهل اللعب المسمى خياليا ولا مانع أن تترجم لفظة تياتر أو سبكتاكل بلفظ خيالى وبتوسع فى معنى هذه الكلمة » . وأثناء حديث الطهطاوى عن هذه الفنون قرأ القارىء العربى لأول مرة عن (الأوبرة أعظم السبكتاكلات) ، وعن (أوبره كوميك) ، وعن (بانورامه) . وذكر الطهطاوى أيضا فى هذا الاطار (محال الرقص المسماه البال Bal ، وفيه الغناء والرقص) وأن الفرنسيين يحتفلون

---

(١) انظر : الألفاظ الدالة على الدوريات : أوراق الوقائع ، التذاكر اليومية والجرنالات ، وكازيطة والورقات اليومية ، ومواضع وروده مذكورة فى الفهرس اللغوى بآخر الكتاب .

(٢) تخليص ٢٢٩

سنويا بما يسمونه (أيام الكرنوال) وإذا كنا نلاحظ اليوم أن الكلمة الفرنسية Bal بمعنى حفل راقص قد اختفت ، فان كلمة كرنفال معروفة الآن ، على الرغم من كونها تكتب اليوم — لا بالواو — بل بالفاء المثلثة .

وارتبط اهتمام الطهطاوى بتقديم صورة للحياة العلمية فى فرنسا باستخدامه لعدد من الالفاظ الأوربية الدخيلة . لقد عرف الطهطاوى بمعهد فرنسا المسمى عنده باسم (الانسطيطوت) نقلا عن الكلمة الفرنسية Institut ، وذكر الاقسام المختلفة التى يضمها الانسطيطوت ، وهى « الأكدمات ، أى المجالس » . ويلاحظ فى نقل الطهطاوى للكلمة الأولى وجود الطاء مرتين مقابلا لصوت (t) فى الكلمة الفرنسية . أما (الأكادمات) فقد اقترح لها الطهطاوى عدة صيغ فى المفرد وهى (أكدمية ، أكدمه ، أقدمه) ، وشرح الخلفية التاريخية لهذه الكلمة بأنها « لفظ مأخوذ من اسم مكان فى مدينة أثينا كان افلاطون الحكيم يعلم فيه تلاميذه ، ومنه قيل لطائفة من الفلاسفة القدماء الأكدميون ، وكان يقال لهذا المكان أكدمية لأن صاحبه كان شخصا يونانيا اسمه أكدمه ، وقد جعل هذا المكان وقفا لأهل مدينة أثينا[1] » . وهكذا شرح الطهطاوى كلمة Academie التى استقرت بعد ذلك بدلالة خاصة بالفنون فى العربية الفصحى الحديثة ، وبصيغة أكاديمية ، كما تستخدم الصفة منها للدلالة على الانتماء العلمى الجامعى .

وأثناء حديث الطهطاوى عن المدارس نجد كلمات معربة جديدة ، فهو يذكر (الكوليج) والجمع (كوليجات) ، ويذكر (مدرسة بوليتقنيقا) نقلا للتسمية Ecole Polytechnique وفى هذه التسمية نجد حرف القاف العربية وسيلة تدوين صوت (ch = que = k) فى الفرنسية ، ولكن الطهطاوى دون هذه الكلمة أيضا (بلوتكنيقا) بالكاف ثم القاف ، وهكذا كذلك شأن

---

(١) تخليص ٣٠٤

علم (الميكانيقا) Mecanique . وذكر الطهطاوى مدرسة الآثار باسم (مكتب الارليغولوفى ، يعنى تفسير الكلمات المكتوبه من قديم الزمان فى اللغات القديمة) وتدل كلمة (مكتب) عنده على معناها المحلى ، أى مدرسة ، أما الارليغولوغى Archeologie ، فقد شكلت مشكلة فى الترجمة ، فكلمة أثر وآثار كانت ذات دلالة بدوية أو دينية ، ولم يترجم الطهطاوى إليها الكلمة الفرنسية ، بل نقلها إلى الحروف العربية وشرح معناها . وأشار الطهطاوى كذلك إلى (علم القبطانية) نقلا عن كلمة Capitaine إلى قبطان ثم تكوين المصـــدر الصناعى للدلالة على الحرفة أو المنتمين إليها .

واهتم الطهطاوى أيضا بذكر المؤسسات العلمية مثل (الكنسرواتوار) أى Conservatoire وشرح معنى الكلمة (الكنسرواتوار كلمة فرنساوية معناها المخزن أو للحفظ أو نحو ذلك ، وفيه جميع الالآت الهندسية)[1] . فهذا النوع من المتاحف العلمية جديد على الطهطاوى ، فعبر عنه بالكلمة الفرنسية منقولة إلى الخط العربى ، وفيها نجد حرف الواويدل على صوت (v) على نحو مالاحظنا من قبل . وذكر الطهطاوى المكتبات العامة ،مثل : (الخزانة السلطانية) أى المكتبة الوطنية ، و (خزانة الارسنال) يعنى مكتبة الترسانة و (خزانة الانسطيطوت) أى مكتبة المعهد ، و (خزانة أكدمة الفرنسيس) أى مكتبة الاكاديمية الفرنسية . وتعد اشارة الطهطاوى أيضا إلى الجمعيات العلمية صورة جديدة لما وجده فى فرنسا من جمعيات ، مثل (الجمعية الاساتية) أى الجمعية الأسيوية ، وهنا نجد الطهطاوى ينقل كلمة Capitaine حرفيا ولم يراع كون (t) ليست أصيلة فى الاسم Asie. وذكر كذلك الجمعية الجغرافية ، والجمعية الغرماطيقية Grammatique وهكذا قدم الطهطاوى مجموعة كبيرة من الالفاظ الأوربية التى توسل بها للحديث عن العالم الجديد والحياة الأوربية والعلم الحديث ومؤسساته .

---

(١) تخليص ٣٠٣

ثانيا : التغير الدلالي

اتخذت كلمات كثيرة محتوى دلاليا جديدا للتعبير عن الحضارة الحديثة ، ويمكن تتبع هذه القضية في بداية النهضة الحديثة في كتاب الطهطاوي « تخليص الابريز »

هناك ألفاظ عربية موروثة اتخذت دلالة جديدة في تراكيب مستحدثة عن طريق الترجمة ، والمقصود بهذا أن الكلمة العربية أصبحت في التركيب تحمل المحتوى الدلالي للمقابل الأوربي . وهذا واضح بصفة خاصة في ترجمة الطهطاوي لمجموعة من التعبيرات الفرنسية إلى العربية ، فالطهطاوي استخدم مصطلح « الحقوق الطبيعية » droits في مقابل « الحقوق الوضعية » droits positives بالمعنى الذي يحمله المصطلحان الفرنسيان [1] ، في وقت كان « القانون » الوحيد الذي يعرفه أبناء مصر هو الشريعة الاسلامية ، كما تعرضها كتب الفقه المتداولة في ذلك الوقت ومثل هذا مصطلح « الموت الحكمي » أو « الموت المدني » فقد وضعه الطهطاوي ترجمة للمصطلح الفرنسي mort civil وكلمة « مدني » لا تعني هنا النسبة إلى مدينة ، بل يحمل التركيب العربي الجديد دلالة المصطلح الفرنسي ، وفي هذا يقول الطهطاوي : الموت الحكمي عند الفرنساوية ، ويقال له : الموت المدني ، هو أن يكون حكم الحي عندهم كحكم الميت في كثير من الأحوال : [2] ومثل هذا نجده في تعبير الطهطاوي عن العطلات والاجازات ، بقوله : « مدة التعطيل ، أو : مدة الفراغ يعني « البطالة » [3] ، وهنا نجد عبارة : مدة الفراغ ترجمة للعبارة الفرنسية temps de vacance ، والفراغ هنا ليس فراغ المكان أو فراغ الفؤاد بل هو بالتحديد فراغ من العمل وهذا المعنى تحدد في هذا التعبير عن الأصل الفرنسي . وعندما تحدث الطهطاوي عن المهندس شقا ليبه ذكر أنه « تلميذ

---

(١) تخليص الابريز ١٥١

(٢) تخليص ٣٦١

(٣) تخليص ٢٤٨

ديم من تلامذة مدرسة العلوم المسماة بلوتـكنيقا »[1] . والمقصود هنا بعبارة: تلميذ قديم Ancien Eléve وهو ما نعبر عنه اليوم بـكلمة خريج . وهكذا نجد عند الطهطاوى كلمات عربية فى تراكيب ذات دلالات جديدة مكتسبة من المقابل الفرنسى الذى ترجم إليها فأعطاها دلالته .

وإلى جانب هذه الـكلمات الداخلة فى تراكيب مستحدثة نجد كلمات مفردة كثيرة ، عرفتها العربية عبر القرون ثم اكتسبت فى بداية النهضة العربية الحديثة معنى جديداً . نجد هذه الـكلمات فى عدة مجالات ، ففى فن المسرح نجد حديث الطهطاوى عن « اللعبة » ، و« اللاعب » و« المقعد » . واللعبة عنده تعنى ما نعبر عنه الآن بـكلمة مسرحية أو العرض المسرحى ، يقول الطهطاوى « وبعد فراغ كل لعبة ترخى الستارة » وهنا نجد دلالة جديدة للعبة لم تعرفه العربية قبل الطهطاوى لغياب المسرح عن الحياة الثقافية . وقد عرف الطهطاوى الممثلين والممثلات ، ووصفهم بعبارته: « واللاعبون واللاعبات بمدينة باريس أرباب فضل عظيم وفصاحة » ، « ثم إن النساء اللاعبات والرجال يشبهون العوالم فى مصر » ، وهنا نجد مجموعة كلمات قديمة بمعنى جديد ، وهو معنى لم يكتب له مع هذه الـكلمة طول البقاء ، ولم يعد يستخدم لها ، ولـكننا نكتفى باثباته دليلا على تحول دلالى فى فترة من الزمن . وفى هذا المجال المسرحى أيضا نجد عند الطهطاوى كلمة « مقعد » ، يقول : « ثم أنهم يصنعون ذلك المقعد كما تقتضيه اللعبة ، ومدة تجهيز المقعد يرخون الستارة »[2] وهنا نجد المقصود عنـــد الطهطاوى بـكلمة « المقعد » ما نعنيه الآن خشبة المسرح وحسبنا هنا أن نشير إلى كون كلمة مقعد ، قد اكتسبت فى استخدامها عند الطهطاوى دلالة لم تـكن لها ولا تعرفها المعاجم العربية القديمة ، ولو احتـكمنا إليها فى فهم دلالتها لما أعطتنا هذه الدلالة الجديدة .

---

(١) تخليص ٣٤٢

(٢) تخليص ٢٥٧

وهناك كلمات عربية قديمة استخدمها الطهطاوى فى حديثه عن الحياة العلمية فى باريس ، فاكتسبت كل منها دلالة جديدة . إن الطهطاوى عرف « العلم » عند الفرنسيين ، ولاحظ أنهم لا يخلطون بين « القسوس » فى دور العبادة و « العلماء » فى دور العلم ، وكأنه بهذا كان يمهد لفهم جديد ولتحول دلالى لكلمة « عالم » لتبعد دلالتها عن الأزهريين ومن شاكلهم ، وتصبح فى الاطار الجديد معبرة عن أصحاب الانجازات العظيمة فى مجالات المعرفة المختلفة . يقول الطهطاوى : ولا تتوهم أن علماء الفرنسيس هم القسوس ، لأن القسوس انما هم علماء فى الدين فقط[1] ، وهنا نجد دلالة للعلم تضم كل فروع المعرفة الانسانية ، ومنها مثلا : « علم الاقتصاد فى المصاريف »[2] ، وهنا بداية دلالة جديدة لكلمة « اقتصاد » بدأت تتجاوز مجرد الانفاق المحدود إلى الفكر فى أمور الانتاج وعلاقاته . وكلام الطهطاوى عن « الآثار » وما بها من « مبانيهم وموميائهم وملبسهم »[3] تحديد دلالى لكلمة عربية كان أكثر استخدامها خارج هذا المجال ، فالأثر بمعنى الحديث الشريف والآثار العلوية من موضوعات علم الفلك ، وهى دلالات عرفتها الكلمة قبل أن يستخدمها الطهطاوى بهذا المعنى ، ولعل تغير المعنى يتضح مثلا من دلالة كلمة «الأثرى» كانت تدل إلى عهد قريب على المشتغل بعلم الحديث والأثر فأصبحت تدل على المشتغل بالآثار والحضارات البائدة . لقد لاحظ الطهطاوى فى باريس مؤسسات للعلم سماها « مجامع » أو « مجالس » ، وهنا نجد دلالة جديدة تتجاوز مجرد التعبير عن «موضع الجمع » أو « موضع الجلوس » كما جاء فى شرح الكلمتين فى القاموس المحيط ، إنها

---

(١) تخليص ١٢٤ ، راجع تفصيل هذه الفكرة فى كتابنا : أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى .

(٢) تخليص ١٠١ .

(٣) تخليص ٣٠٧ .

دلالة اصطلاحية لمؤسسة علمية رفيعة لم تكن تعرفها الكلمة[1] . وهكذا نجد عند الطهطاوى كلمات عربية لها تاريخها بدلالات جديدة.

وهناك مصطلحات فرنسية فى المجال السياسى كان على الطهطاوى أن يعبر عنها بالعربية . لقد عاش الطهطاوى مرحلة من الثورة الفرنسية ، ولم تسعفه كلمة الثورة الدالة — فى القاموس المحيط مثلا — على الهيجان والوثب والسطوع، فتوسل بكلمة الفتنة . وكأنه هنا اتخذ هذه التسمية تقية من الحاكم ، ولكننا هنا أمام دلالة جديدة، تختلف عن دلالتها فى المعاجم : الضلال ، الاثم ، الفضيحة ، العذاب الخ ، وأمام استخدام جديد للكلمة تجاه أحداث وصفها الطهطاوى وأوضح التيارات السياسية المتصارعة. ذكر الطهطاوى فى هذا الصدد « **الحريين** » و « **الحرية** » بمعنى الليبراليين فى مقابل « **الملكية** » المؤيدين للنظام الملكى ، وذكر أيضا أن فرقة تريد « **الملكة** » وأخرى تريد « **الجمهورية** »[2] . وفى كل هذا نجد دلالات جديدة لهذه الصيغ المنسوبة إلى كلمات لها تاريخها فى العربية، ولا يمكن أن تشرح فى ضوء معجم قام على أساس الدلالات القديمة .

ثالثا : الاشتقاق

تناولت مجموعة قرارات أصدرها المجمع اللغوى بالقاهرة قضية « الاشتقاق[3]»، وقد أكد المجمع بهذه القرارات أن الحياة المعاصرة تتطلب اشتقاق كلمات لم ترد فى المعاجم العربية ويمكن صياغتها بعدة وسائل لغوية . كان اللغويون العرب فى عصر الحضارة الاسلامية قد سجلوا عدة ضوابط للاشتقاق ، فأضاف المجمع اللغوى إلى هذه القواعد قرارات فتحت مجال الاشتقاق لتكوين ألفاظ جديدة . كان

---

(١) تخليص ٣٠٠ ، ٣٠٣ .

(٢) تخليص ٣٤٥ ، ٣٥٦ .

(٣) انظر هذه القرارات ، فى : مجموعة القرارات العلمية (القاهرة ١٩٦٣) وكتاب فى أصول اللغة (القاهرة ١٩٦٩) من مطبوعات مجمع اللغة العربية .

قرار المجمع بجواز الاشتقاق من أسماء الأعيان منطلقا جديدا، لا يجافى روح العربية على الرغم من عدم ذكر النحاة الأقدمين له ، فقد تصوروا الاشتقاق يصدر من الفعل فحسب فأثبت المجمع أنه يصدر أيضا من الاسم ، وأجاز اشتقاق صيغ جديدة وفق ضوابط واضحة. وتتلخص أهم قرارات المجمع فى الاشتقاق فى قضايا: المصدر الصناعى ، وقياسية أوزان المصادر ، والصفة المشبهة ، وإسم الاله ، وصيغة النسب ، وقياسية أبنية الأفعال .

(أ) المصادر :

(١) المصدر الصناعى صيغة عرفتها العربية فى عصر الحضارة الاسلامية على نحو محدود فى كلمات مثل : الشعوبية ، وكان قرار مجمع اللغة العربية حول المصدر الصناعى إقرارا صريحا بصحة كلمات كانت قد وضعت فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين وفق هذه الصيغة ، فالطهطاوى يتحدث عن البدائيين ويصفهم بكلمة (الساذجية) ، وشبلى شميل يذكر (الانسانية) ، و (الحيوانية) ، و (الجاذبية) . . وتتكون صيغة المصدر الصناعى من الكلمة بإضافة ياء النسب والتاء . وقد أصبحت هذه الصيغة شائعة فى العربية الفصحى المعاصرة للدلالة على المذاهب والتيارات والآراء. وقد تكونت هذه الصيغة عند العرب المعاصرين بإضافة النهاية إلى أنواع مختلفة من المفردات منها :

- (اسم جمع + يه) ، مثلا : قومية ، جنسية ، شعبية .
- (مصدر + يه) ، مثلا : تقدمية ، اشتراكية ، تعاونية ، انهزامية .
- (اسم فاعل + يه) مثلا : عاطفية ، جاذبية .
- (كلمة مركبة + يه) ، مثلا : رأسمالية .
- (كلمة أجنبية + يه) ، مثلا : فيدرالية ، كلاسيكية ، رومانسية .

وفى كل هذه الصيغ نجد العربية الفصحى أفادت من هذه الامكانية التى عرفها

الاستخدام القديم بشكل محدود ، وأجازها المجمع فأصبحت صيغها شائعة في الكتابات المعاصرة .

(٢) أقر المجمع قياسية أوزان المصادر للدلالة على معان محددة، وبهذا ارتبطت الصيغة بالدلالة على نحو مباشر في هذه القرارات :

— وزن (تفاعل) للمساواة والاشتراك ، مثل : تبادل ، تحارب ، تخاطب ، تداخل ، تكامل ، تصارع ، تعارض ، تعاون ، تعايش .

— وزن (افتعال) للدلالة على المطاوعة ، مثل : التهاب ، ابتكار ، اجتماع، احتكاك ، احتكار ، احتمال ، اختزال ، ارتجال .

— وزن (فعال) أو (فعيل) للدلالة على الصوت ، مثل : صراع ، صهيل ، زئير ، نحيب ، عويل .

— وزن (فعالة) للدلالة على الحرفة أو شبهها، مثل : نجارة ، سماكة، طباعة.

— وزن (فعلان) للدلالة على التقلب والاضطراب ، مثل : غليان ، خفقان، هذيان .

— وزن (فعال) للدلالة على المرض ، مثل : صداع ، هزال ، كساح .

(٣) أقر المجمع جواز جمع المصدر عندما تختلف أنواعه ، ونجد في الاستخدام المعاصر صيغاً كثيرة لجمع المصدر ، منها : تحليل / تحليلات وتحاليل ، تدريب / تدريبات، إرشاد/ إرشادات، انتخاب/ انتخابات، اشتراك/ اشتراكات، استنتاج / استنتاجات ، إعانة / إعانات .

(ب) المشتقات والأبنية الأخرى للاسماء :

(١) أقر المجمع اللغوى قياسية اشتقاق وزن (فعال) للدلالة على الاحتراف أو ملازمة الشيء وفي هذا استمرار للعرف اللغوى السائد في كلمات مثل: نجار، حداد،

خباز . وأضاف قرار المجمع بعد هذا : إذا خيف لبس بين صانع الشيء وملازمه كانت صيغة فعال للصانع وكانت النسب بالياء لغيره . فيقال: زجاج لصانع الزجاج، وزجاجى لبائعه . ويبدو أن العنصر الأخير من القرار لم يقبل فى الاستخدام الحديث ، وحل محله فى المثال المذكور المضاف والمضاف إليه : بائع الزجاج .

(٢) أقر المجمع انطلاقا من استخدام وزن (فعال) صياغة (فعالة) اسما للآلة باعتبار أنها تقوم بالشىء على نحو مطرد .

ويتفق هذا القرار مع العرف اللغوى السائد : غسالة ، دباسة . وفوق هذا فقد درس المجمع الصيغ الواردة فى الاستخدام اللغوى القديم للدلالة على الآلة . وأقر وجود الأوزان التالية لإسم الآلة : فعال ، فاعلة ، فاعول ، وبهذا كله أضاف المجمع هذه الأوزان التى لم تنص عليها كتب الصرف إلى الأوزان الأخرى. وبذلك أصبح اسم الآلة من الصيغ التالية :

الوزن	المثال	
١) مفعل	مبرد	أوزان نصت عليها كتب الصرف
٢) مفعلة	مقصلة	
٣) مفعال	منشار ، ميزان	
٤) فعالة	سماعة	أوزان اقرها المجمع
٥) فعال	حزام ، رباط	
٦) فاعلة	ساقية	
٧) فاعول	ساطور	

(٣) أقر المجمع صحة صيغة النسب إلى الجمع.وكان نحاة البصرة قد ذهبوا إلىأن صيغة النسب لا تتكون إلا من صيغة المفرد . ولكن الاستخدام القديم عرف أيضا تكوين صيغة النسب من الاسم الجمع ، مثل : شعوبى ، صبيانى ، ملوكى ، أصولى ..... الخ . وقد عرف الاستخدام العربى الحديث صيغتى (دولى) نسبة

إلى المفرد — من ناحية الصيغة ، و (دولى) نسبة إلى الجمع . وكلا الاستخدامين صحيح فى رأى المجمع .

(٤) أقر المجمع جواز دخول (أل) على حرف النفى المتصل بالاسم واستعماله فى لغة العلم . وفى هذا إقرار بصحة صيغ قديمة مثل : اللاكون ، اللادرية . وقد تكونت فى الاستخدام العربى الحديث عدة صيغ على هذا النحو : اللاهوائى — اللاسلكى ، اللاوعى ، اللاشعور ... الخ .

(ج) قياسية أبنية الافعال :

(١) كان قرار المجمع بخصوص وزن (فعل) لإفادة التعدية أو التكثير أو النسب أو السلب أو لوصف الحدث إقرارا لكثير من الصيغ المستخدمة وانطلاقا نحو صيغ أخرى ، مثل : حضر ، شخص ، جسم ، حلل ، شرع : وأقر المجمع صياغة وزن (فعل) من أسماء الاعلام الأجنبية والكلمات الدخيلة عموما، ولهذا أقر المجمع : (بستر) من باستير Pasteur ، (وبلشف) من البلشفية ، و (تلفن) من التليفون، و (فبرك) من الفابريكة أى المصنع، و (جبس) من الجبس . وأجاز المجمع كذلك صحة صيغة (قيم) باعتبارها وزن فعل من القيمة وذلك للتمييز بين (قيم) أى عرف أو حدد القيمة ، وبين (قوم) أى أصلح أو عدل. ويتضح الفرق الدلالى بين الفعلين بمقارنة : قيم التمثال ، قوم التمثال . وبهذا كان قرار المجمع بصحة صيغة (فعل) غير مرتبط بوجود وزن (فعل) من نفس المادة ، فالاشتقاق جائز من الاسم العربى أو الأجنبى .

(٢) أجاز المجمع قياسية وزن (أفعل) لتعدية الفعل الثلاثى، ووزن (استفعل) للاتخاذ والجعل ، مثل : استبعد ، استهدف ، وكذلك لإفادة الطلب والصيرورة ، مثل : استخرج ، وفى هذا إقرار للعرف القديم مع جواز الاشتقاق القياسى منه .

(٣) أقر المجمع قياسية أوزان المطاوعة على النحو التالى. (نصف : انتصف)
— الفعل الثلاثى مطاوعه افتعل ، إذا كانت فاء الفعل (ل / م / ن) .
— الفعل الثلاثى مطاوعة انفعل ، إذا كانت فاء الفعل أى حرف آخر، مثل : (جذب : انجذب) .
— وزن (فعل) مطاوعة تفعل (قرب : تقرب) .
— وزن (فاعل) مطاوعة تفاعل (صارع : تصارع) .
— وزن (فعلل) مطاوعة تفعلل (دحرج : تدحرج) .

ويرجع اهتمام المجمع بأوزان المطاوعة إلى أنها شاعت فى الاستخدام العربى منذ قرون بدلا من صيغ المبنى للمجهول التى قل استخدامها فى الفصحى بعد أن انتهى من اللهجات . وفى كل هذه القرارات الخاصة بالاشتقاق كان المجمع اللغوى يعتمد على بحث الاستخدام اللغوى القديم ويضع القاعدة إقرار للعرف القديم وتيسيرا للاستخدام الحديث .

رابعا : النحت

عرفت اللغة العربية النحت على نحو محدود منذ الجاهلية وسجل اللغويون فى القرن الثانى الهجرى أمثلة بأعيانها تناقلتها كتب اللغة على مدى القرون ، ثم طرحت قضية النحت فى العصر الحديث فى إطار الافادة من الامكانيات اللغوية المختلفة لصوغ المصطلحات العلمية والكلمات الحضارية ونوقشت القضية عند عدد من اللغويين مع قضية « التركيب المزجى » وإمكانية الافادة منه[1] .

يرجع مصطلح « النحت » إلى الخليل بن أحمد ، ذكره فى كتاب العين ،وأوضحه

---

(١) أنظر : رمسيس يونان : النحت فى اللغة العربية ؛ مجلة مجمع اللغة العربية ١٣ / ٢٦ (١٩٦١) .
وكيفورك مينا جيان : النحت قديما وحديثا ، فى : اللسان العربى ٩ / ١ /١٦٢ (١٩٧٢) .

بعدة أمثلة : فالفعل (حيعل يحيعل يحيعل) (حيعلة) مأخوذة من فعل وحرف جر : حى + عل ، وهذا من النحت . والنسبة إلى عبد شمس (عبشمى) والى عبد القيس (عبقسى) ، وكذلك الفعل (تعبشم) بمعنى انتسب إلى عبد شمس ، والفعل (تعبقس) بمعنى انتسب الى عبد القيس . وأوضح الخليل هذه الأبنية المنحوتة على النحو التالى :

« أخذوا من كلمتين متعاقبتين كلمة واشتقوا فعلا[1] » ، وبين ذلك بشرح بنية كلمة (عبشمى) بقوله : أخذوا العين والباء من (عبد) وأخذوا الشين والميم من (شمس) وأسقط الدال والسين فبنى من الكلمتين كلمة ، فهذا هو النحت . أى أن النحت تكوين كلمة مركبة من كلمتين أو أكثر .

وظلت كتب اللغة بعد الخليل تذكر النحت بأمثلة محدودة ، فابن السكيت ذكر فى اصلاح المنطق عدة مصادر (البسملة) نحتا من عبارة : (بسم الله ، والهيلله) نحتا من عبارة لا إله إلا الله ، و (الحوقلة) و (الحولقة) من لا حول ولا قوة إلا بالله ، و (والحمد له) من : الحمد لله ، و (الجعفدة) من جعلت فداك ، و(السبحلة) من : سبحان الله[2] .

واهتم ابن فارس بعد ذلك بقضية النحت فى معجم مقاييس اللغة ، ورأى الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف أكثرها منحوت ، كما أشار أيضا الى قضية النحت فى كتابه الصاحبي بعدة أمثلة ، منها : (صلدم) عن صلد + صدم بمعنى القوى .[3]

ونجد أمثلة قليلة أخرى عند الثعالبي فى فقه اللغة مثل (الدمعزة) من أدام الله

---

(1) كتاب العين ١ /
(2) ابن السكيت : اصلاح المنطق (ط القاهرة ١٩٤٩) ص ٣٥ م - ٢٣٦ .
(3) ابن فارس : الصاحبي فى فقه اللغة

عزك[1] . وعندما ألف السيوطى كتابه المزهر خصص للنحت بابا جمع فيه آراء عدد من اللغويين ، كما أشار إلى كتاب عنوانه تنبيه البارعين على المنحوت من كلام العرب ، تأليف أبى على الظهير بن الخطير الفارسى العمانى ويبدو أن هذا الكتاب الوحيد حول النحت ، كان قليل الانتشار حتى أن السيوطى لم يقف عليه[2]. وهكذا تناولت كتب اللغة ظاهرة النحت بأمثلة محدودة ، أما مؤلفو كتب النحو فلم تعنهم هذه الأمثلة لقلتها كثيرا . وقد وصف ابن مالك فى التسهيل النحت : قد يبنى من جزأى المركب فعلل بفاء كل منهما وعينه ، فان اعتلت عين الثانى كمل البناء بلامه أو بلام الأول ونسب اليه . ولكن أبا حيان شارح التسهيل رأى : « هذا الحكم لايطرد ، وإنما يقال ما قالته العرب»[3] وبذلك كان اللغويون والنحويون متحفظين تجاه قياسية النحت ، فاللغويون اكتفوا بأمثلة محدودة ولم يذكر النحويون قياسية أبنية النحت .

وعندما حدث اللقاء الحضارى مع اللغات الأوربية كانت هذه اللغات قدأفادت من النحت فى تكوين كلمات كثيرة للتعبير عن ظواهر طبيعية أو حضارية أو مصطلحات علمية .

ومن أمثلة النحت فى اللغة الانجليزية :

Smog ←Smoke + Fog

وتدل الكلمة المنحوتة على الضباب المختلط بالدخان (فى لندن) .

وما تزال اللغة الانجليزية تكون على سبيل النحت كلمات جديدة مثل :

Motel ← Motorists + Hotel

وتدل الكلمة المنحوتة على الفندق المقام للمسافرين والسائقين على الطريق ،

---

(١) الثعالبى : فقه اللغة (ط القاهرة ١٩٥٤) ص ٣٥٥

(٢) أنظر ، السيوطى : المزهر ١ / ٤٨٢

(٣) المزهر للسيوطى ١ / ٤٨٥

وملحق به أماكن للسيارات وخدمتها ، وقد ظهرت الكلمة فى الولايات المتحدة الأمريكية ثم انتقلت مع الفكرة إلى القارة الأوربية .

والنحت من أهم وسائل تكوين المصطلحات العلمية ، فالكلمات المركبة تتخذ عناصرها من أصول مختلفة ، لتصبح هذه العناصر مكونات كلمة واحدة ، فكلمة Philosophia مكونة من phil بمعنى حب + sophia بمعنى الحكمة ، والكلمات telephone, telegraphe, television مكونة من العنصر tele الدال على البعيد مع كلمة phone الدال على الصوت أو graph الدالة على الكتابة أو vision الدالة على الرؤية . وقد أفادت اللغة العربية من هذه الصيغ المنحوته فى اللغات الأوربية على سبيل الاقتراض والتعريب ، ولكن التعريب بالاقتراض لا يمكن أن يكون الحل الوحيد لقضية الألفاظ الحضارية والمصطلحات .

لقد اقترح البعض تكوين أبنية صرفية منحوته من عناصر عربية للتعبير عن المصطلحات الحديثة . وكان عدد من أبناء الشام مع تعريب التعليم والادارة بعد نهاية الحكم العثمانى قد مالوا إلى نحت كلمات عربية من عناصر عربية ، وتأثروا فى هذا الرأى بطبيعة اللغة التركية ، وهى لغة لاصقة ، تتيح بنيتها تكوين الكلمات على نطاق واسع بطريق النحت وقد اقترح بنهم مثلا ترجمة السابقـــة الأوربية (... + pre) ومعناها (قبل) بكلمة (قبل + . . .) ، وعلى هذا : فبتاريخ prehistory فبمنطقى prelogic . ولكن الكثير من مقترحاتهم للنحت وجد تحفظا من أكثر المشتغلين بالعلوم ، ولم تقبل مقترحاتهم لاستخدام : (غب + . . .) للدلالة على السابقة الأوربية (. . . +) فلم يعد أحد يترجم Postscholar (فبمدرسى) بل : مابعدالمدرسة وكذلك postglacial لم تعد تترجم (غبجليدى) بل . ما بعد الجليدى . ويلاحظ فى الأمثلة المذكورة تفضيل الذوق العربى للكلمتين العربيتين على الكلمة المنحوته . ولذا تحفظ كثير من علماء العرب المعاصرين من قبول الألفاظ المنحوته .

وقد وافق مجمع اللغة العربية بالقاهرة على نحت الكلمات العربية عند الضرورة ونص القرار : « يجوز النحت عندما تلجىء الضرورة العلمية إليه » ويتضح من هذا النص مدى التحفظ والتحرج ، وهو تحفظ يتضح كذلك فى رأى مصطفى الشهابى بمجمع دمشق : « نحن فى حاجة إلى النحت فى ترجمة بعض الأسماء العلمية ، ولكن النحت يحتاج إلى ذوق سليم خاص ، فكثيرا ما تكون ترجمة الكلمة بكلمتين عربيتين أصلح وأدل على المعنى من نحت كلمة عربية واحدة يمجها الذوق ويستغلق فيها المعنى » . ومع هذا نجد الشهابى يلجأ للنحت فى نادرة ، وذلك مثل ترجمته libocedrus (= أرز cedrus + لبنان — Lib) لب + أرز = لبأرز، للدلالة على اسم شجر من فصيلة الصنوبريات . ومن النحت عنده أيضا ترجمته السابقة — sub فى الانجليزية و — sous فى الفرنسية بالسابقة (تح . . . .) عن كلمة (تحت) ، أى أن مصطلح subsoil يترجم (تحتربه) ، وهذه الصيغة مقبولة عند كثير من اللغويين ، وعنصراها المكونان عربيان . وهناك صيغ منحوته عناصرها أجنبية : تليفون . تليفونى ، تلفن ، وثمة صيغ مختلطة بها عنصر أجنبى وعنصر عربى ، مثل (كهرمغنطيسى) ترجمة للمصطلح Electro — magnetic وقد ترجم Electro الى (كهر —) عن كلمة كهرباء التى عرفتها العربية قبل العصر الحديث وكلمة magnetic أخذت على سبيل التعريب بالافتراض . وعلى هذا نلاحظ وجود صيغ منحوته من عناصر عربية ، أو من عناصر عربية وأجنبية، أو من عناصر أجنبية . ولكن هذه الأنماط لم تستوعب قضية المصطلحات الأوربية المركبة .

خامسا : التركيب :

يعد التركيب من أهم وسائل التعريب ، والمقصود بالتركيب ترجمة العناصر المكونة لمصطلح أوربى مركب إلى اللغة العربية وتكوين تركيب عربى من أكثر من كلمة يؤدى معنى المصطلح الأوربى . ويتم هذا بتحديد ترجمة عربية لكل عنصر

من العناصر الأوربية الداخلة فى تكوين المصطلح . فالسابقة (meta —) تترجم (ماوراء) ، وعلى هذا تكون metaphysics (ما وراء الطبيعة) والسابقة (— infra) تترجم (تحت) ، وعلى هذا يكون (infrared) (تحت الأحمر)، والسوابق (— mono) (—bi) ، (— tri) تترجم (أول —) ، (ثانى —)، (ثالث —) على التوالى .

وهناك مصطلحات كثيرة كونتها العربية الفصحى الحديثة بطريقة التركيب المزجى بدلا من النحت والفرق بين الطريقتين كبير ، فنى النحت تفتقد العناصر المكونة بعض صوامتها وحركاتها ، وفى التركيب تحتفظ العناصر المكونة بكل صوامتها وحركاتها . ولذا يلاحظ ميل اللغة العربية إلى التركيب لا إلى النحت ، وأكثر الأبنية التركيبية فى اللغة العربية قد نشأت فى العصر الحديث ترجمة لمصطلحات أوربية .

ويمكن تقسيم الأبنية التركيبية أوالمركبات المزجية فى العربيةالفصحىالمعاصرة فوق عناصرها المكونة إلى ثلاثة أقسام : التركيب المزجى العربى ، والتركيب المزجى المختلط ، والتركيب المزجى الدخيل .

تتكون صيغ التركيب المزجى العربى من مكونات عربية : ولعل من أقدم هذه التراكيب وأكثرها شيوعا منذ عصر الحضارة الاسلامية (لا + إسم) ، فعند الفلاسفة المسلمين نجد : (لا كون) ، (لاوجود) ، (لانهائية) ، (اللاشىء) ، (اللاثبوت)، (اللاأدرية) .وقدأصبح هذا التركيبشائعافى العربية الفصحىالحديثة للتعبير عن مصطلحات فلسفية واجتماعية وسياسية : (اللامبالاه) ، (اللادينى) ، (اللاشعور) ، (لامنتمى)، (لامركزية)(لاسامية)، (لاطائفية) (لافقريات)، (لاسلكى) ، (اللاحرب واللاسلم) .

وقد تكونت صيغ مركبة أخرى عنصرها الاول كلمة(شبه) مثل(شبه حربى) ،

(شبه جزيرة) ، (شبه عسكرى) ، (شبه رسمى) . وتكونت صيغ أخرى عنصرها الاول (غير) مثل : (غير انسانى) ، (غير مباشر) ، (غير دستورى) ، (غير رسمى) ، (غير عادى) ، (دستورى) . وتكونت مركبات اخرى عنصرها الأول كلمة (عدم) مثل : (عدم الانحياز) ، (عدم الارتياح) ، (عدم اعتداء) . وتكونت مجموعة مركبات أخرى عنصرها الأول كلمة (سوء) مثل :(سوء سلوك) (سوء نية) ، (سوء تفاهم) ، (سوء إدارة) . وقد استقرت كل هذه التراكيب فى العربية الفصحى الحديثة ترجمة لمصطلحات أوربية مركبة .

أما التركيب المزجى المختلط فيتكون من (اسم عربى ونهاية أجنبية) وهذا الضرب شائع فى مصطلحات الكيمياء على وجه الخصوص .

فالمصطلح (Lact — ate) ترجم عنصره الأول Lact — إلى لبن . واحتفظ المصطلح العربى بالنهاية الأجنبية (ate—) ، فقيل (لبنات) ، وهذا ملاحظ كذلك فى acet — ate خلات aulfate كبريتات .

وأهم النهايات الأجنبية التى اتخذتها هذه الصيغ المركبة :

(يد = ide) ، (ات = ate) ، (بيت = ite) ، (وز = ous) ، (يك = ic) .

وتتضح هذه الصيغة مع كلمة كبريت

مثل sulphate كبريت + ات = كبريتات

sulphide كبريت + يد = كبريتيد

sulphurous acid حمض كبريت + وز = حمض الكبريتوز

sulpheric acid حمض كبريت + يك = حمض الكبريتيك

ولاشك أن التركيب المزجى المختلط على النحو المذكور قد احتفظ بالكلمة العربية كاملة وأضاف النهاية الأجنبية ، وهذا مقبول للذوق العربى ، ولكن مشكلة هذا النوع من التركيب أن بعض الدول العربية أخذت من الانجليزية (مثــــلا:

sulphide) والأخرى أخذت من الفرنسية (مثلا: sulfureus)فظهرت تسميتان عربيتان (كبريتيد) ، (كبريتور) لنفس الشيء ،وأدت هذه الظاهرة بالضرورة إلى تنوع المصطلح بتنوع اللغة المصدر مع أن كلا المصطلحين مكون من (عنصر عربي + نهاية أجنبية) ، ولكن مما يخفف وقع هذه المشكلة أن هذا الاختلاف على نطاق محدود بين الفرنسية والانجليزية ، ولكن وجوده عندنا مشكلة .

والنوع الثالث : من المركب المزجي تلك التراكيب المكونة من عناصر أجنبية وهذا شائع بصفة خاصة في أسماء الأجهزة :

أمبير متر Ammeter = Amperemetre ، بارومتر Barmometer

ترمومتر thermometer ، فولتامتر Voltameter .

وقد استقرت هذه التراكيب على سبيل الاقتراض بالتعريب ، وهذا شأن كثير من أسماء الآلات والأجهزة . ولذا لم تنجح محاولات تعريب أسماء هذه الآلات والأجهزة رغم مقترحات رسمية معروفة في ذلك ، فالمجمع اللغوي بالقاهرة اقترح ترجمة اللاحقة (scope) بالوزن (مفعال) ، وعلى ذلك (microscope) (مجهار) ولكن الكلمة الأوربية دخلت إلى الاستخدام على سبيل الاقتراض ،ولم تستقر كلمة (مجهار) بهذا المعنى .

وهكذا عرفت اللغة العربية في العصر الحديث عدة أشكال لغوية لأداء المصطلحات العلمية . وأن كان الحس اللغوي العربي لا يقبل النحت إلا نادراً فان التراكيب المزجية المختلفة قد قدمت حلولا علمية لقضية تكوين المصطلحات العلمية في العربية الفصحى الحديثة .

الفصل السابع

اتجاهات التغير فى البنية والمعجم

١ — التغير فى البنية

عندما كتب سيبويه فى القرن الثانى الهجرى كتابه العمدة فى النحو لاحظ اللغوى العظيم أن صوت الضاد من الأصوات الصعبة التى لا يسهل نطقها على غير البدو، وتحدث عن نطق آخر لها أطلق عليه «الضاد الضعيفة»[1]. ولسنا نريد هنا أن نفصل القول فى كيفية النطق القديم للضاد البدوية. فهذا لا يزال موضع خلاف بين الباحثين، ولكن الضاد الضعيفة على كل حال ثمرة أثر من آثار الأساس اللغوى، فاللغات التى سبقت العربية فى الشام والعراق ومصر والمغرب لم تكن تعرف الضاد.. كانت العراق حيث عاش سيبويه ملتقى لأخلاط من القوم يتحدث أكثرهم باللهجات الآرامية التى لا تعرف صوتا اسمه الضاد. ولذا فقد نتج عن محاولتهم الناقصة النطق بالضاد ذلك الصوت الذى يطلق عليه سيبويه اسم الضاد الضعيفة.

وربما يتصور البعض فى مصر أو فى العراق أن هذه الضاد التى تنطق اليوم هى الضاد التى كان ينطقها امرؤ القيس أو زهير قبل الاسلام. أو كعب بن زهير فى صدر الاسلام. أو الخليل بن أحمد فى القرن الثانى للهجرة. وهذا غير صحيح. فالنطق العراقى الحالى للضاد يخلطها مع الظاء خلطاً يجعل التلاميذ يخلطون فى الكتابة

---

(١) الكتاب (ط بولاق ١٣١٧) ٢/٤٠٤

بين هذه وتلك . وهذه الظاهرة ليست وليدة الساعة بل بزغت مع استقرار العربية في العراق . وهناك عدد كبير من الرسائل أكثرها من العراق والمغرب يحاول مؤلفوها فيها التمييز بين الكلمات ذات الضاد والأخرى ذات الظاء ، ولولا الخلط لما كانت هناك ضرورة لتأليف هذه الرسائل[1] .

لقد التقت الضاد والظاء في العراق في نطق واحد هو النطق الذي يسمعه أبناء مصر ظاء . أما في مصر فهناك تطور مواز . فقد التقت الضاد والظاء في نطق واحد . فنحن نقول اليوم كلمة (ظل) في العامية كما لو كانت بالضاد . ولسنا نريد الآن تحديد زمن هذا الخلط ، وقصارى محاولتنا هنا أن نبين أن هذا النطق الذي يتصوره بعض أبناء مصر نطقا قديما للضاد ليس كذلك ، فهذا النطق الحديث يجعل من الضاد صوتا مطبقا مقابلا للدال . ولكن سيبويه جعل المقابل المطبق للدال هو الطاء لا الضاد . وهنا وجه الخلاف بين القديم والحديث ، فالاطباق في اصطلاح علماء الأصوات العرب القدامى والمعاصرين اتخاذ طرف اللسان وأقصاه وضعاً مرتفعاً نحو الحنك الأعلى مع حدوث تقعر في وسط اللسان . ولو طبقنا الفهم العلمي الدقيق لنصوص سيبويه على البحث الصوتي لخرجنا من هذا أن النطق القديم للطاء (ط) هو ما ينطبق تماما على النطق الحالي للضاد في مصر ، فالضاد في مصر تنطق مثل الدال . اللهم إلا أن الضاد مطبقة والدال غير مطبقة ، وقديما قال سيبويه « ولولا الاطباق لصارت الطاء دالا .. ولخرجت الصاد من الكلام لأنه ليس شيء في موضعها غيرها »[2] . لقد حدث إذن تطور في عدد من الأصوات . لقد صعبت الضاد فتحولت إلى نطق جديد وتغير نطق الطاء .

---

(١) رمضان عبد التواب : مشكلة الضاد وتراث الضاء والظاء . في : مجلة المجمع العلمي العراقي (١٩٧١) وبه قائمة بهذه المؤلفات في الفرق بين الضاد والظاء .

(٢) الكتاب ٢/٤٠٦

وهناك قضية يثيرها كثير من الباحثين حول نطق القاف ، وقد وصف سيبويه نطق هذا الصوت وصفا يجعله من الأصوات التى يهتز الوتران الصوتيان اهتزازا شديدا عند النطق بها ، ويطلق على هذا النوع من الأصوات اسم : « الأصوات المجهورة » . ولكن النطق الحالى لهذا الصوت فى قراءتنا للعربية الفصحى لا يجعل الصوت مجهورا ، أى أن الوترين الصوتيين لا يهتزان اهتزازا يذكر عند النطق بالقاف فى نطقها التقليدى على مستوى الفصحى ، فكيف نتج الاختلاف ؟ هل تطورت القاف من صوت مجهور إلى صوت غير مجهور ؟ وكيف كانت القاف القديمة ؟ يرى بعض اللغويين ان هذه القاف القديمة هى القاف البدوية أعنى الجاف البدوية ، وليعد القارىء الكريم بسمعه إلى البدو يقول (هو جال لى وأنا جلت له) ، إن هذه الجاف مجهورة فعلا وقد تكون هى القاف التى عرفها سيبويه . ويرفض بعض الباحثين هذا التفسير قائلين بأن القاف القديمة تشبه الغين الحالية أى تشبه النطق العامى الحالى للقاف فى السودان والكويت والخليج العربى [١] .

ويرى بعض الباحثين أن هذا الصوت هو الوريث الحقيقى للقاف القديمة . ان ظواهر التطور الصوتى كثيرة وحسبنا مع ضيق المكان ما ذكرناه .

كلمات جديدة

أما التطور فى الكلمات فأبعد مدى وأكثر وضوحا ، إن وزن فاعل ووزن مفعول والأوزان الأخرى هى هى ، لم يكد يطرأ عليها تغيير فى البنية ، ولكن التغير فى هذه الأوزان يكمن فى بناء كلمات جديدة لم يكن يعرفها المجتمع البدوى القديم . ولننظر نظرة بسيطة إلى مادة جمع فى « لسان العرب » مقارنين إياها بنفس

---

(١) حول الجانب الصوتى فى لهجة الكويت ، انظر : عبد العزيز مطر : خصائص اللهجة الكويتية ، الكويت فبراير ١٩٦٩ ، وقد ناقش الباحث هذه القضية ص ٣٤ — ٣٥ .

المادة فى معجم دوزى (1) ، والمعروف أن كل المادة التى فى لسان العرب المؤلف فى القرن السابع الهجرى قد أخذت من معاجم سبق تأليفها فى مراحل سابقة ، وهذه المعاجم أخذت مادتها بدورها من الرسائل اللغوية التى أثمرت عنها حركة جمع اللغة فى البادية فى أواخر القرن الأول وعلى امتداد القرن الثانى وأوائل القرن الثالث . والاستثناء الوحيد هنا هو ما أخذه صاحب لسان العرب من معجم تهذيب اللغة للازهرى ، فقد سجل الأزهرى بنفسه فى القرن الرابع الهجرى مادة لغوية فى البادية. إن مادة اللسان إذن مادة بدوية وجلها يرجع إلى القرن الثانى الهجرى ، فماذا تفعل الحضارة العربية الاسلامية والعلوم الناشئة والمجتمع الحضرى فى العراق والشام ومصر والمغرب والاندلس بهذا المعجم البدوى الذى يعرف للجمل أكثر من مائة اسم ، وماذا يفعل المفكر الاندلسى بمائة اسم للاسد ؟

لقد نشأت كلمات جديدة مع الضرورات الحضارية الجديدة ، ولولا هذه التجديدات لما عرفنا الحضارة العربية الاسلامية فى أبعادها المأثورة. وعندما حاول المستشرقون الأوروبيون قراءة التراث العربى الاسلامى لم يسعفهم لسان العرب فى الفهم الدقيق للكلمات وطال تفكيرهم ، وحاولوا بالمقارنة فهم السياق حتى عرفوا المقصود معرفة تصيب أحيانا وتجافى الصواب أحيانا . وهنا ظهرت الحاجة إلى تأليف معجم مكمل للمعاجم العربية ، وقام المستشرق دوزى بعمل هذا المعجم. ومن الطريف هنا أن نقارن مادة من المواد فى اللسان كمثل للغة البادية بما جمعه دوزى كنموذج للكلمات التى استخدمت فى عصر الحضارة العربية الاسلامية . وكى نكمل الصورة لننظر فى المعجم القيم الذى ألفه عالم هندى جليل فى القرن الثالث عشر الهجرى هو التهانوى ، وهذا المعجم هو كشاف اصطلاحات الفنون .

لقد أمدت اللغة البدوية مجتمع الحضارة الاسلامية بالمواد اللغوية المختلفة ونعنى

---

(1) Dozy : Supplément aux dictionaires arabes, I. II. Leiden/ Paris 1881.

بالمواد هنا الحروف الأصول. وأمدت أيضا بعدد من القوالب أو الأوزان ولكنها لم تكن بحاجة إلى استخدام جميع الأوزان من كل كلمة ، فمثلا وزن انفعل من المادة جمع أى : انجمع . لم يرد فى لسان العرب ولكنه استخـــدم فى الاندلس الاسلامية . يقول المقرى : « انجمعت عن على النفوس » .

الأوزان : افعال وافعوعل أو افعنلل أو افعنلى وغيرها من الأوزان النادرة لم ترد أيضا من المادة (جمع) ، ولكن القضية ليست فقط قضية وجود الكلمة ، فالكلمة كرمز صوتى لا قيمة لها دون استخدام ، والمعنى هو العنصر الثانى بعد وجود الرمز ، فالرمز اللغوى لا يكون رمزا إلا إذا كان له معنى ، وسنحاول فيما يأتى تتبع تطور بعض الالفاظ التى تدخل فى مادة (جمع) .

لقد عرف لسان العرب كلمة (جمع) أنها نتيجة ضم شيء إلى شيء ، أو أنها مرادف لكلمة جماعة من الناس، والجمع أيضا هم القوم المجتمعون ،والجمع فوق هذا وذاك : الاشتات من التمر . ولكن العلوم العربية الاسلامية استخدمت كلمة الجمع كاصطلاح ، وكل علم عرف لهذا الاصطلاح معناه ، يوضح هذا لنا كتاب التهانوى كشاف اصطلاحات الفنون(١) . فالجمع عند المحاسبين هو زيادة عدد إلى عدد آخر، أى أننا إذا أضفنا ٥ + ٦ = ١١ لكان هذا جمعا . ولو أضفنا ٥ + ٥ = ١٠ لكان عنده تضعيفا . ويذكر التهانوى أيضا الجمع عند علماء أصول الفقه : وهؤلاء هم المهتمون بالقضايا المنهجية للفقه الاسلامى ، فالجمع عندهم : « أن يجمع بين الاصل والفرع لعلة مشتركة بينهما ليصح القياس » . وأما الجمع عند النحويين فله معانيه وصوره المختلفة ، ونفس المصطلح نجده أيضا عند البديعيين والصوفيين والمنطقيين وغيرهم من أصحاب العلوم . وهكذا استخدمت الكلمة القديمة (جمع) استخداما اصطلاحيا متنوعا .

---

(١) أنظر مادة (جمع) فى كشاف اصطلاحات الفنون (ط القاهرة ١٩٦٣) ١/٣٣—٢٤٣ .

ولنقف قليلا عند كلمة (الجامعة) . فهــذه الـكلمة استخدمت كما يخبر لسان العرب ـــ صفة للمؤنث واسماً . فالصفة مثل قولهم (سورة جامعة) أى جمعت فيها أشياء كثيرة . و (الجامعة) اسماً بمعنى الغل أو القيد ، وشتان بين هذا الاستخدام والاستخدام الحديث ، نحن نعرف الجامعة اليوم تياراً سياسياً هو الجامعة الاسلامية ، ومنظمة دولية هى : الجامعة العربية ومعهدا أكاديمياً مثل جامعة القاهرة ومعهدا علميا غير أكاديمى مثل الجامعةالشعبية .

أما كلمة (جماعة) فيبدو أن استخدامها كثر وشاع بمعنى محدد جديد فى عصر الحضارة الاسلامية . إن لسان العرب يعرف الكلمة ، فالجماعة عنده الجمع من الناس أو الشجر أو النبات ، ولـكن إذا نظرنا فى معجم دوزى لاحظنا أن معظم أمثلته حول كلمة جماعة مأخوذة من مؤلفات الاندلسيين والمغاربة . ذكر دوزى فى استخدام الـكلمة : « مذهب السنة والجماعة » ،« أهل السنة والجماعة » « جماعة المسلمين » « أمر الجماعة » « افترق أمر الجماعة » « المستمسكون بالجماعة » . . . الخ . وواضح أن كلمة الجماعة تعنى هنا الصف الاسلامى (الموحد) . وكل هـذا نقله دوزى عن المقرى وابن خلدون وأبى حيان وغيرهم من المغاربة . ولنفـكر قليلا فى استخدامنا العامى لـكلمة جماعة كناية عن الزوجة . . لنلاحظ تغيرا فى دلالة الـكلمة .

وهناك عدد من الألفاظ لم تعرفها اللغة العربية حتى القرن الثانى إذا سلمنا أن لسان العرب قد قدم لنا صورة أمينة لها ، فكلمة (جمعية) لم يعرفها اللسان ونجدها لأول مرة فى معجم دوزى ، وهو يذكر تحتها « جمعية أهل البلد » ،ولـكننا نستخدم الـكلمة اليوم استخداما اصطلاحياً شائعا فنتحدث عن الجمعية العمومية لإحدى الشركات المساهمة وعن الجمعية العامة للامم المتحدة كمجموع الأعضاء المساهمين أو المشتركين ، وعن جمعية الاسعاف كمنظمة خيرية ، وعن الجمعية التشريعية كمجلس نيابى ، وعن الجمعية التعاونية ، وكذلك عن الجمعية الاستهلاكية . وهكذا ظهرت الـكلمة واستخدمت وشاعت .

وشبيه بهذا القول فى كلمة (اجتماع) فهذه الكلمة لم يعرفها اللسان وذكرها دوزى عن أبى الفداء بمعنى اللقاء ، ثم أفرد لها التهانوى فى «كشاف اصطلاحات الفنون» عرضا مسهبا ، وتحدث عن مفهوم «الاجتماع» عند المنجمين وعند علماء الكلام وكذلك عند النحاة ، فلكل علم مصطلحه .. وإذا قلنا اليوم كلمة «الاجتماع» تبادر إلى الذهن اجتماع مجموعة من الناس فى مكان ما أو اجتماعهم على شىء . وربما تذكر البعض «علم الاجتماع» ، هذا العلم الجديد الذى استعان بالكلمة القديمة ليسمى نفسه فى العربية ، وربما خطر فى ذهن أحد القراء وزارة الشئون الاجتماعية.. فكلمة اجتماعية من اجتماعى ، والأخيرة من اجتماع ، وربما تذكرنا المساواة الاجتماعية أو العلاوة الاجتماعية — كل هذا من الكلمة التى لم تكن تعرفها لغة البدو حتى القرن الثانى ، وهل كان لمجتمع البداوة أن يعرف العلاوة الاجتماعية أو علم الاجتماع أو اجتماع الساكنين عند النحاة !

ولعل من غير المتصور أن يتحدث اليوم مثقف عربى دون أن يستخدم كلمة (مجتمع) ، ولكن هذه الكلمة لم يعرفها اللسان ، وأقدم استخدام نعرفه لها هو ما سجله دوزى نقلا عن الجغرافى الصقلى المشهور الادريسى ، وربما كان الادريسى أول من عرف هذه الكلمة التى أصبحت فى العصر الحديث مصطلحاً هاما ، وشبيه بهذه كلمة (مجمع) ، نتحدث اليوم عن المجمع العلمى والمجمع اللغوى ، فهل عرفت لغة البادية هذه الكلمة ؟ نعم لقد عرفتها ولكن بمعنى الجمع من الناس ونقطة الالتقاء وموضع الاجتماع ، وهذه المعانى القديمة أصل للاستخدام الحديث .

وفوق هذا وذاك فنحن نعرف اليوم كلمة (المجموع) كاسم قائم برأسه وكذلك كلمة (المجموعة) كاسم آخر ، ولكن الكلمة عرفت قديمـــا ، فالمجموع فى اللسان ما جمع من هنا وهناك وإن لم يجعل كالشىء الواحد ، ولكن كلمة المجموعة لم تعرف قديما كاسم قائم بذاته بل كصفة ، ولنقرأ أمثلة دوزى : «قرية مجموعة عامرة» بليدة مجموعة ، أى زاخرة بالسكان ، ولكن الكلمة

تحولت اليوم فى الاستخدام الحديث إلى اسم قائم بذاته .

وأخيرا نذكر كلمة (تجمع) هذه الكلمة الشائعة فى الاستخدام المعاصر والتى لم تعرفها المعاجم القديمة ولا محاولات استكمالها. وكأن هذه الكلمة صياغة جديدة لمادة قديمة فى شكل قديم . فإذا كانت المادة قديمة فى العربية والأوزان المختلفة قديمة أيضا . فان الاستخدام اللغوى القديم لم يكن بحاجة إلى صياغة كل الأوزان والمشتقات من هذه المادة . فالتطور الذى حدث يكمن فى صياغة كلمة جديدة من وزن معروف ومادة معروفة ، وهكذا تظهر من العنصرين كلمة جديدة ، ويظهر التطور أيضا فى استخدام الكلمة القديمة لتؤدى دلالة جديدة ، أرادت العلوم أو الحضارة التعبير عنهـا ، فوجدت فى الكلمة القديمة إمكانية طيعة طورتها بالاستعمال فى المعنى الجديد فاكتسبته . وأصبحنا لا نعرفها إلا فى الاستخدام الجديد .

تراكيب نحوية جديدة :

وفوق هذا وذاك فهناك ظواهر كثيرة نلاحظها فى بناء الجملة العربية الحديثة ، ولا تكاد تبدو شائعة فى الضوابط التى استخرجها النحاة من لغة القرون الأولى . فالجملة العربية الحديثة كما نعرفها فى الكتابات والمؤلفات والصحافة تعرف تراكم المصادر على نحو لم يعرف قديما بنفس القدر من الانتشار . نقرأ اليوم عن احتمال قيام حرب فى منطقة ما ، والكلمات : احتمال ، وقيام ، وحرب ، كلها مصادر أضيف سابقها إلى لاحقها ، ونسمع من الاذاعة على لسان أحد رجال الأمم المتحدة : استحالة منع نشوب حرب بين مصر وإسرائيل . والكلمات : استحالة ومنع ، نشوب ، وحرب ، كلها مصادر أضيف سابقها إلى لاحقها على نحو لم تكن تعرفه اللغة القديمة على هذا النحو التراكمى هذا وينبغى أن نذكر فى هذا الصدد أن دراسات النحاة العرب للغة إنما قامت على أساس لهجات بعض القبائل ولغة

الشعر العربى فى القرن الثانى للهجرة ، ولم تضع هذه الدراسات نصوص النثر العربى الذى ازدهر بعد هذا فى بؤرة التحليل اللغوى، ولذا فمن الصعب الاعتماد على كتب النحاة القدماء لنتعرف على طبيعة الأساليب التى عرفها النثر العربى الاسلامى، ونحن الآن نلاحظ بعض الظواهر الموجودة فى النثر فنلاحظ الشائع الجديد فى النثر ولا نراه فى تلك المؤلفات التى قامت أساسا على دراسة لغة الشعر ، فأحكامنا هذه تظل نسبية إلى أن يوضح البحث نسبة شيوع هذه الظواهر فى الشعر والنثر على نحو تاريخى ، وهذا هو ما يصبو إليه النحو التاريخى للغة العربية .

يعرف النثر العربى الحديث اتجاها إلى فك حالة الإضافة باستخدام حرف جر . وهذه الظاهرة شائعة نمارسها ونفهمها ليل نهار ، فنحن نتحدث عن صورة من الصور ونقول : هذا منظر عام للواجهة الأمامية لجامعة القاهرة ، تفصيلا للعبارة الموجزة : منظر واجهة جامعة القاهرة . ولنقارن الجملتين : ففى الثانية كلمة منظر مضافة إلى واجهة ، وكلمة واجهة مضافة إلى جامعة . ولكن الجملة الأولى عرفت فك حالة الاضافة مستخدمة بين المضاف والمضاف إليه حرف جر هو اللام، فبدلا من « منظر واجهة » نقول « منظر لواجهة » ، وبدلا من « واجهة الجامعة» نقول « الواجهة . . لجامعة » . . ولكن ينبغى أن نلاحظ هنا أيضاً أن المضاف السابق فى كل هذه الحالات قد وصف ثم جاءت اللام ثم المضاف إليه السابق بعد ذلك . وعلى هذا فنحن نتحدث عن منظر عام — للواجهة الأمامية — لجامعة القاهرة. وكذلك عن : المدير العام — لإدارة البعثات ، وعن المفوض العام — لشركة السيارات ، أو عن : المراسل الخاص — للأهرام أو : الأمين العام — لجامعة الدول العربية . وفى كل هذه الحالات وصف المضاف السابق ، وفكت حالة الإضافة باللام.

وإذا نظرنا إلى مزيد من الأمثلة الخاصة بفك حالة الإضافة باللام وجدنا

أن المضاف السابق يكون فى كثير من الأحيان فى حالة إضافة جديدة . نقول (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة) . فالتعبير البسيط (منظمة التربية و . .) قد فك بدخول اللام على المضاف إليه (التربية) وبدخول مضاف إليه جديد مضاف إلى المضاف الأول ، فتحدثنا عن منظمة الأمم . . ل . . . . ، وعن وزير الدولة ل . . ، وعن سوء استعمال الحق ل . . . ، وعن أول اجتماع ل . . ، وعن استلام الدولة ل . . وهكذا نلاحظ أن ظاهرة فك حالة الاضافة باستخدام اللام بين المضاف القديم والمضاف اليه القديم ارتبطت بتخصيص المضاف القديم إما بالصفة أو بمضاف إليه جديد .

وإلى جانب هذا نلاحظ فك حالة الاضافة باستخدام حرف الجر : الباء ، فنحن نقرأ عن قرار بتأميم الشركة ، أو تفويض بعقد الاتفاقية ، أو أمر بإنشاء . . . . ، أو مشروع بتخويل رئيس الدولة . . وهذه الظاهرة شائعة فى النثر العربى الحديث ، ولا يكاد يعرفها الاستخدام القديم ، وعلى كل حال فظاهرة فك حالة الإضافة فى النثر العربى الحديث موازية لفك حالة الاضافة فى العبرية الحديثة وفى اللهجات العربية الحديثة ، ففى العربية القديمة يكون المضاف والمضاف إليه تركيبا واضح المعالم مثل (سيفر يوسيف) أى سفر يوسف ، ولكن التعبير الحديث (هسيفر شل يوسيف) أى الكتاب الذى ليوسف ، ولو كنا أكثر دقة لترجمنا العبارة إلى العامية المصرية قائلين : الكتاب بتاع يوسف ، فحالة الاضافة فكت هنا وهناك فى العبرية باستخدام (شل) كأداة للربط بين المضاف والمضاف إليه السابقين ، وفى اللهجات العربية الحديثة باستخدام كلمة (بتاع) أو (متاع) ، أو (حق)[1] . فظاهرة فك حالة الإضافة موجودة إذن فى مستويات لغوية حديثة مختلفة ، وكل مستوى

---

(1) فى بعض اللهجات البدوية المعاصرة يقال : البيت حج (جيم مصرية) ابراهيم ، بمعنى : بيت ابراهيم .

يستخدم للفك أداته الخاصة به ، ولم تعد الظاهرة أمراً نادرا أو خاصا بضرورة الشعر كما سجل النحاة القدماء .

وفوق هذا وذاك فقد طورت العربية الفصحى فى استخدامها الحديث عدة وسائل للتعبير عما يعبر عنه فى علم اللغة بالتنكير . ومعروف أن العربية تعرف عدة أنواع من المعارف ، وكان التنوين وما يزال يؤدى فيها وظيفة علامة التنكير. ولكن الاستخدام الحديث يعرف أيضا استخدام كلمة (أحد) والمؤنث (إحدى) مضافة إلى ما بعدها للتعبير عن التنكير . نجد هذا فى العبارات الآتية :

أحد الأمريكيين - أحد البيوت - أحد رجال الشرطة - أحد كبار الضباط - إحدى السفن الحربية - إحدى المدارس - إحدى الصحف - إحدى المقومات الأساسية ، فكلمة أحد أو إحدى أضيفت إلى صيغة الجمع التالية ، والتركيب كله معناه معنى المفرد النكرة . وشبيه بهذا أيضا استخدام كلمة (ما) بعد المفرد للتعبير عن كونه نكرة ، وهذا التعبير له جذوره فى القرآن الكريم : (مثلا ما)[1]، ونجده شائعا فى النثر العربى الحديث مثل : شيء ما ، وقت ما ، يوم ما . اصطلاح ما، تأليف ما ، . . . إلخ ، وهكذا عرفت اللغة العربية فى العصر الحديث للتنكير تعبيرات مختلفة بأدوات طورتها لذلك وأخذتها لهذا من اللغة المتوارثة .

٢ - نمو المفردات فى العربية :

إن نظرة إلى جملة واحدة بسيطة فى حديثنا اليومى أو أحد الكتب الحديثة أو القديمة لتعطينا كلمات لها تاريخ ، ولكل كلمة فى كل لغة تاريخ ، فالكلمة تحيا وتستخدم وتتغير وتموت . . والعربية تعرف كلمات ترجع إلى اللغة السامية الأم . وهذه ترجع إلى ما قبل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، وهناك كلمات لا تعرفها من اللغات السامية إلا العربية ، عرفتها بعد أن هاجرت الجماعات

---

(١) البقرة ٢٥ .

السامية الأخرى من عهد الساميين ، وهناك طائفة من المصطلحات استخدمت مع العلوم الإسلامية ، وفوق هذا وذاك فهناك طائفة من الألفاظ الأجنبية تعربت تعربا كاملا ، ولم نعد نحس اليوم أنها أجنبية ، بجانب طائفة ما تزال عجمتها واضحة أمامنا ، إن مستخدم اللغة لا يهتم بتاريخ الكلمة أو بأصلها ، وكل ما يهمه هو أن يستطيع إستخدامها ، فالمتحدث ساعة إستخدامه للغة لاينظر إلى حياة كل كلمة . بل يستعمل الرمز اللغوى لنقل الفكرة أو الانفعال إلى المتلقى أو للتنفيس عن عاطفة أو شعور . إن ماضى الكلمة وتاريخ اللغة أمر علمى يهتم به الباحثون . ولا غرابة ، فالإنسان يحتاج اللغة كما يحتاج هواء للتنفس ، ولكن معرفة طبيعة عملية التنفس وطبيعة مكونات الهواء أمران علميان يهمان الباحث كموضوع للبحث ، ولا يهتم الإنسان العادى إلا بالممارسة العملية للغة وللتنفس ، فدراسة حياة كل كلمة عمل علمى .

وانتظر فى كتاب الفهرست لابن النديم إلى العنوان البسيط التالى : « أسماء النقلة من اللغات إلى اللسان العربى » . لكل اسم من كلمات هذا العنوان فى تاريخ اللغة قصة ، فكلمة (اسم) كلمة سامية قديمة نجدها فى صورة أو أخرى فى كل اللغات السامية ، نجدها فى النقوش الأكادية المؤرخة فى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد . فهذه الكلمة يزيد عمرها إذن عن خمسة وأربعين قرنا . وقد بحثت الكلمة فى ضوء المنهج المقارن . ويرى معظم الباحثين أنها من أصل ثنائى هو السين والميم أو الشين والميم ثم تطورت بعد هذا فى اتجاه الثلاثى ، والألف التى نراها فى الخط العربى فى هذه الكلمة هى ألف وصل تسقط فى نطق الكلمة فى السياق . والصيغة التى أمامنا من الكلمة هى صيغة جمع التكسير ، وجمع التكسير ظاهرة خاصة بالمجموعة الجنوبية من اللغات السامية ، أى أنه يوجد فى الحبشية والعربية الجنوبية والعربية الشمالية ، ولا يوجد فى اللغات السامية القديمة فى العراق والشام .

والكلمة الثانية فى هذه العبارة هى كلمة (نقلة) وهى من المادة العربية نقل ،

وهذه تفيد النقل المادى أى نقل شىء من مكان إلى آخر ، وتطور المعنى هنا إلى النقل المعنوى ونقل الفكرة من لغة لأخرى . وهنا نؤرخ أن استخدام كلمة (ناقل — نقلة) بمعنى (مترجم مترجمين) قد عرف فى القرن الرابع الهجرى عندما ألف كتاب الفهرست لابن النديم . والواقع أن دراسة تاريخ اللغة لا تتحقق إلا بدراسة النصوص وتحليلها وتصنيفها . ثم بتتبع الظاهرة صوتية كانت أو صرفية أو نحوية أو دلالية تتبعاً تاريخياً يحدد على نحو دقيق زمن ظهور الكلمة ومكان ظهورها وتطور دلالتها على مر التاريخ .

يذكر ابن النديم فى هذا العنوان كلمة (اللغات) وكلمة (اللسان)، ولابد أن نقف قليلا عند الكلمتين ، فالكلمة الثانية (اللسان) كلمة ترجع إلى أقدم اللغات السامية ، هى من المعجم الأساسى المشترك فى اللغات السامية حملتها الهجرة الأكادية معها ، فهى أقدم من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد . ولو نظرنا إلى الكلمة فى اللغات السامية الأخرى وجدناها فى العبرية (لاشون) وفى الآرامية (لشانا) ، والكلمات الثلاث (لسان — لاشون — لشانا) كلمة واحدة من الناحية الاشتقاقية، فالسين فى العربية يقابلها شين فى العبرية والآرامية ، وهذا قانون صوتى ، والقوانين الصوتية مطردة لا تعرف الشذوذ . والحركة التى بعد السين فى العربية هى فتحة طويلة وفى العبرية نجد بعد الشين ضمة طويلة ، والواقع أن الفتحة الطويلة فى العربية يقابلها دائما ضمة طويلة فى اللغات الكنعانية ، والعبرية إحدى اللغات الكنعانية ، وهذا أيضا قانون صوتى مطرد . وإذا نظرنا بعد هذا إلى الكلمة الآرامية(لشانا) لاحظنا أنها بفتحة طويلة ، وقد كانت هذه الفتحة الطويلة أداة التعريف فى الآرامية ، فالجماعات السامية الأولى لم تكن تعرف أداة للتعريف . فطورت العربية لنفسها أداة هى (ال) تدخل فى أول الكلمة وطورت الآرامية لنفسها فتحة طويلة تلحق بآخر الاسم لتفيد التعريف . الكلمات (لسان ، لاشون ، لشانا) كلمة واحدة اشتقاقيا وتفيد كل واحدة اللسان بالمعنى المادى(كجزء من الفم) ثم المعنى المعنوى أيضا .. فقد تحدثوا عن اللسان العربى أو اللسان الآرامى أو اللسان العبرى .

لقد استمر استخدام كلمة اللسان بالمعنى المعنوى قرونا طويلة، وعندما تأسست فى القرن الماضي مدرسة للغات والترجمة أطلق عليها اسم «مدرسة الألسن». وكان ناظر هذه المدرسة رفاعة رافع الطهطاوى يستخدم فى كتبه كلمة (لسان) مثلما نستخدم اليوم كلمة (لغة) فهو يتحدث عن اللسان العربى واللسان الفرنساوى واللسان اللاطينى . . ونحن نتحدث اليوم عن الإنجليزى والألمانى والعربى والإيطالى . وهذا التعبير ظهر أولا كصفة وموصوف نجده فى القرآن الكريم (بلسان عربى مبين) (١) . ونجده عند ابن النديم فى القرن الرابع الهجرى : « اللسان العربى ، واللسان السريانى، اللسان اليونانى » . وعند ابن النديم نجد أيضا حذف الموصوف والاكتفاء بالصفة ، أى : بالعربى — بالسريانى — باليونانى أو إلى العربى أو إلى السريانى أو إلى اليونانى، ومن هنا استقر التعبير الشائع عندنا والذى كان صفة لا لمؤنث بل لمذكر هو اللسان.

أما كلمة (لغة) فترجع إلى أصل غير سامى ، إنها من الكلمة اليونانية Logos، ومعناها : كلمة . كلام . لغة . وقد دخلت الكلمة العربية فى وقت مبكر، فاللغويون العرب جامعو اللغة فى القرن الثانى للهجرة تحدثوا عن لغات القبائل ، وكثيرا ما وصفت الصيغة اللغوية التى اعتبروها ثانوية أو جانبية بأنها « لغة» وقالوا مثلا إن كلمة شهد أو كبر فيها أربع لغات شَهْد شِهْد . شَهِدَ . شِهِدا وكذلك كبر . فاللغات هنا هى الصيغ أو الأشكال الفرعية. ولكنهم تحدثوا أيضا عن اللغة بالمعنى الاصطلاحى الذى نعرفه اليوم لكلمة كلام ، قالوا : لغته فاسدة أو لغته جيدة ثم تغيرت دلالة هذه الكلمة فى العربية إلى أن حلت شيئا فشيئا محل كلمة (لسان) . إن الحديث عن تاريخ حياة أى كلمة تاريخ طويل ، فالكلمة تعيش وتتفاعل ، والمعنى هو حصيلة الملابسات التى عاشتها الكلمة .

إن العربية لغة ذات قدرة بارعة فى هضم الألفاظ الأجنبية وجعلها مثل الألفاظ الأصيلة فيها . فكلمة فيلسوف كلمة يونانية مركبة philosoph ومعناها الأول : محب الحكمة ، دخلت الكلمة العربية مع عدد كبير من ألفاظ الحضارة

---

(١) النحل ١٩٤

والثقافة اليونانية ، وعرفتها العربية فى عصر الحضارة الاسلامية،ولكن العربية لم تكتف باستخدام الكلمة بل كونت منها كلمات جديدة ، صاغت الفعل (تفلسف) وصاغت كلمة (فلسفة) وكلمة (المتفلسفة) ، وكل هذه الكلمات صيغت وفق الضوابط العربية من المادة الأجنبية. وقد دخلت معظم الألفاظ اليونانيةإلى العربية عبر اللهجات الآرامية التى سادت الشام والعراق قبل الإسلام ، ولا سيما السريانية التى حملت ثقافة اليونان إلى العرب .

وبجانب هذا فهناك عدد كبير من الألفاظ الآرامية الدخيلة فى العربية . إن حياة البادية القديمة لم تكن تعرف زراعة التفاح أو التوت أو الجميز أو الخوخ أو الرمان أو الفستق ، لم تعرف البادية هذه الثمار إلا عن طريق المناطق الزراعية فى الشام والعراق وكانت هذه المناطق آرامية، وعندما تعربت هذه المناطق احتفظت بهذه الكلمات للتعبير عن تلك السلع ، وهذه كلمات آرامية استقرت فى العربية[1] .

وشبيه بهذا كلمة (باب) لقد أخذت من الكلمة الآرامية (بابا) . والألف الأخيرة أو بمعنى أدق الفتحة الطويلة الأخيرة علامة التعريف الآرامية ، ومعنى « بابا » الآرامية : شق ، فراغ ، خرق ، قطع ، قسم . وقد دخلت هذه الكلمة اللغة العربية بصيغتين ، باب وبابه (نقلا عن بابا) ولها فى العربية نفس المعانى : فهذا باب البيت وهذا باب للخروج من المأزق . وهذا باب فى كتاب . هذا وقد استخدم ابن دانيال فى خيال الظل مصطلح « بابه » للتعبير عن القسم أو الفصل . إن الكلمات الآرامية الدخيلة فى العربية كثيرة متنوعة ، وكثير من الألفاظ دخل

---

(١) حول الألفاظ الآرامية الدخيلة فى العربية :
S Fraenkel, Die aramäischen Fremdworter im Arabischen, Leiden 1978.

من اليونانية عبر الآرامية ، لذا فدراسة الآرامية تفسر لنا كثيرا من جوانب تاريخ المفردات العربية .

كان شأن الألفاظ القبطية فى مصر شبيها بالآرامية بالشام والعراق ، ولذا فقد دخل اللهجة العربية فى مصر عدد كبير من الألفاظ القبطية . فأسماء الشهور القبطية توت وبابه يعرفها كل فلاح فى مصر ، كما يعرف كل فلاح سورى أيلول وحزيران وشباط[1] ، فأسماء الشهور المتداولة فى العراق والشام عرفها الآراميون عموما بنفس الشكل والترتيب ، كما عرفت مصر فى العهد القبطى توت وبابه وهاتور وكيهك وبرمودة وبرمهات. وهناك ألفاظ قبطية كثيرة ماتزال تعرفها لغة الحديث اليومى فى مصر مثل : برسيم، بقوطى ، بورى ، هوش، هلوس، هجص، مياص ، ننوس ، شلوت ، واحة ، طاش ، ورور .

ويطول بنا القول لو تحدثنا عن كل العناصر الأجنبية التى دخلت الاستخدام اللغوى فى المجتمع العربى ، ولكنا نكتفى ببعض اللغات[2] . فالتركية كانت لغة الطبقات الحاكمة اجتماعيا ، وأثر هذا بأن دخلت بعض الألفاظ التركية إلى لغة الحديث فى العالم العربى ، فكلمة طظ (طوز) معناها ملح أو تافه أو تراب وهى تركية ، وكلمة طاسلاق ومعناها فعل : بسرعة ودون عناية ، دخلت العربية من التركية فأصبحت فى الحديث اليومى (طسلأ) وأصبح هذا الفعل متصرفا مثل باقى أفعال اللهجات العربية . ويعرف أبناء الشام كلمة (بلش) كفعل بمعنى بدأ ، والواقع أن هذه الكلمة من الأصل التركى: باشلامق بنفس المعنى، وقد اختصرت

---

(١) ليس صحيحا أنها (رومية) كما زعم المقدسى : أحسن التقاسيم ١٨٣ .

(٢) انظر فى موضوع الألفاظ الدخيلة فى العربية : جرجى زيدان : تاريخ اللغة العربية (القاهرة ١٩٠٤) .

الكلمة وحدث فيها قلب مكانى بأن تبادلت اللام والشين مكانيهما على طريقة : أرانب أنارب ، فأصبح (ب ش ل) — (ب ل ش) وقد استخدمت الكلمة كما يستخدم أى فعل فى اللهجات العربية فى الشام فى مختلف التصريفات .

وهناك ألفاظ دخلت فى شكلها التركى رغم كون بعض عناصرها من أصل عربى ، فنحن نعرف السلاملك ، وهو مكان السلام فى القصور حيث كان الجنود يصطفون لتحية الباشا ، والكلمة مركبة من كلمة سلان العربية والمقطع لك فى التركية وهو يفيد المكانية ، فالسلاملك مكام السلام ، والحرملك مكان الحريم ، والسلاحلك مكان السلاح . وهناك ألفاظ صيغت فى العهد التركى فى مصر من عناصر فارسية ، فنحن نعرف (مدرسة المبتديان) بالقاهرة، وقد أسست فى القرن الماضى حاملة هذا الاسم . وكلمة المبتديان ذات نهاية فارسية خاصة بالجمع ، وعلى هذا فهى (مدرسة المبتدئين)، وما زلنا نستخدم عبارة (كبير الياوران) ولا ننزعج من استخدام الألف والنون فى المضاف إليه ، وهذا لأن كلمة الياوران ليست إلا جمعا ، والجمع هنا بالنهاية الفارسية آن ، وقد كانت الفارسية لغة يعرفها المثقفون فى الدولة العثمانية ، وكانت تدرس كلغة كلاسيكية فى بعض معاهد العلم فى مصر فى القرن الماضى حتى دخول الإنجليز .

كانت التركية أيضا المعبر الذى انتقلت عليه ألفاظ أوربية مختلفة إلينا ، فنحن نعرف كلمة وابور وأصلها كلمة Vapour فكيف تحولت الـ V إلى واو؟ الواقع أن هذا يفسر عن طريق استخدام الترك للخط العربى ، فقد عبروا بحرف الواو عن صوت V فى لغتهم ، فإذا أرادوا كتابة كلمة تركية أو أجنبية بها صوت V كتبوها باستخدام الواو ، وعلى هذا فقد كتبوا كلمة وابور هكذا، ونطقوها كما لو كانت ڤابور» ثم انتقلت الكلمة بصوتها المكتوبة الى العربية فنطقت « وابور » أو اعتقد المتحدث العربى آنذاك أن أصلها واو ولم يستطع التركى نطقها . ومن ثم دخلت الكلمة العربية بالواو . وشبيه بهذا ما نراه فى كتب القرن التاسع عشر عندما يكتبون اسم (ڤينا) بالواو ، أى (وينا) ، وهذه الظاهرة تفسر

لنا وجود بعض أسماء الاعلام فى العربية، لقد أخذ الترك عن العرب اسم (توجيده) ولكنهم نطقوا الواو كما لو كانت ف V ، ولم ينطقوا بصوت الحلق الحاء فهو لا يوجد فى لغتهم ، لقد نطقوا كلمة توحيدة كما لو كانت تفيده ، ومن هنا ظهر فى العربية اسم جديد هو (تفيده) .

وهكذا عاشت العربية وتطورت بنيتها فى تفاعل دائم مع طبيعة العلاقات الاجتماعية والحضارية والسياسية والدينية التى سادت فى المجتمع العربى عبر التاريخ.

تصويبات طباعية

الصفحة	السطر	الصواب
٣	٤	Bloomfield
٧	٦	لا إصدار
٧	٧	وكتبت به
٨	٢	لا تنطق
١٠	١	كان المؤلف
١١	١	وعدم
١١	١	ازبكستان (التركستان سابقا)
١٨	٢	علم اللغة المقارن
١٩	١	بصفة عامة
٢١	٥	أقدم نقوش سامية
٢٨	٧	وجود النهايات
٣٢	١٢	كلمة « سكب »
٣٥	٦	سنة ٢٥٠٠ ق م
٣٨	٩	النقوش اللحيانية
٤٤	٣	عترة الرسول
٤٥	١	الاسلام والفتوح
٤٩	٧	شعراء
٤٩	٤	غلاما
٥٤	٦	قصار الأرجاز
٥٤	٦	وشراح الشعر القديم
٦٦	١٠	يحذف السطر
٧٣	٥	العربية الاصلاحية
٨٢	١	الاجتماعية والعلمية

الصفحة	السطر	الصواب
٩٣	١١	إقرارا للعرف
٩٦	٨	بكلمة (قد + ...)
٩٦	٥	الأوربية (Post
٩٦	٤	(غبمدرسى)
٩٧	٧	للنحت فى حالات نادرة
٩٨	١٣	وفق عناصرها
١٠٠	٢	كبريتوز
١٠٦	١	كما ذكر

رقم الايداع بدار الكتب

٥٦٢٠ / ١٩٧٧م

الترقيم الدولى ١ — ٣٤ — ٧٢٥٧ — ٩٧٧

مطبعة دار نشر الثقافة
١١ شارع كامل صدقى بالفجالة
ت ٩٢٦٠٧٦




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com